ايام الهكسوس

لم تكد الأيام تنتهى بالأسرة الثالثة عشرة الى أواخر حياتها ، حتى أصبحت الأمور فى حال من الفوضى ، أقل مايقال فيها انها جرت البلاد الى ثورات متتابعة وحروب أهلية مختلفة • وكأنما شاءت الايام أن تمتحن مصر من وراء ذلك بضرباتها القاسية ، جزاء ماقدم زعماؤها من أسباب الخلاف بين يدى الأيام •

وهكذا منطق الزمن وقضاؤه فى مصير الأمم حين يقع الخلاف بين زعمائها ، وحينما تملؤهم شهوة الحكم فتعمى قلوبهم وأبصارهم عن الحق والواقع ، وتصرفهم عن كل خير ، وتدفع بهم فى سبيل الضلال ، وتسوقهم الى الهاوية • تاركين من ورائهم شعوبا بريئة ، لتنهشها ذئاب الاستعمار فى شراهة وعنف ، وتنصب عليها أسواطه فى غير رحمة • فالويل الويل للأمة يوم يركب شيطان الحكم منها رؤوس القادة والزعماء ، ثم يسكن فى قلوبهم ، ويوسوس فى صدورهم بتلك الأطماع التى تنشر بينهم أسباب الخلاف وتذيع بينهم العداوة والبغضاء ، ثم تدفعهم الى المكروه وتسوق الشعب من وراء ذلك الى ما ينتظره من سوء المصير •

وقعت مصر على أثر الخلاف بين زعمائها فريسة فى أيدى المغيرين من الهكسوس • والتاريخ يدخر لنا بعض الخبر فيما كتبه مؤرخنا الوطنى « مانيتون » حيث يقول : « ان الرعاة قد استولوا على مصر فى سهولة • واجتاحوها فى غير حرب • لأن المصريين كانوا يومئذ فى ثورة واضطراب » • ولعل فى حديثه هذا ماىمكن أن ينهض دليلا واضحا لسوء الحال فى مصر من ذلك العهد • فلم تكد الحياة تنتصف من أيام

الأسرة الثالثة عشرة ، حوالى عام ١٧٥٧ قبل مولد المسيح ، حتى بدأت علة الضعف السياسى والاقتصادى تأخذ طريقها مسرعة فى كيان الدولة وحتى أخذت عواصف الاضطراب تهب عليها من مكان قريب •

وبين أسناد التاريخ المصرى مايؤيد رواية « مانيتون » ، فهذه بردية سالييه (Sallier) (١) التى كتبت أيام « منفتــاح ابن رمسيس الكبير» تشير أخبارها الى ما مهد لأيام الهكسوس فتقول : « ولقد حــدث أن وباء كان فى مصر ، ولم يكن هناك من سيد (بين المصريين) يقوم ملكا (عليهم) » •

وليس عجيبا أن تصاب البلاد بالوباء فى ذلك العهد • فلن يكون من وراء الخلاف بين زعماء البلاد وحكامها غير الفساد وغير الجوع وسوءالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والخلقية جميعا • فلم تسؤ أحوال المصريين بقدر ما ساءت فى عهد المماليك • ولم يجع الشــعب المصرى بقدر ما جاع فى عهد المماليك • ولم تصب مصر بوباء الطاعون مثلما أصيبت فى أيام المماليك • ومصر على عهد المماليك — كما نعرف — قد كانت أقاليمها قسمة بين الحكام ، يتمتعون بثمارها وينعمون بخيراتها بينما يبيت الزارعون والعاملون من أبنـــاء هذا الشعب على الطوى ، ويفترشون الحصباء وتأكل أسواط الحاكمين أديمهم أكلا لما •

ولقد نستطيع بعــد ذلك الوصف القصير الذى جاء على لسان « مانيتون » • وأيده ذلك السند من أسناد التاريخ ، أن ندرك مقدار ما أصاب البلاد من الانحلال السياسى فى ذلك العهد • وكيف أن الخلاف بين زعماء هذا الوطن وحكامه لم يمكن أهله من الاجتماع تحت راية زعيم يقودهم ، أو حول عرش سلطان يظلهم •

---

(١) يرجع تدوين ذلك القرطاس إلى أيام الملك منفتاح بن رمسيس الأكبر من الأسرة التاسعة عشرة . والقرطاس محفوظ بالمتحف البريطانى •

اسم الهكسوس:

يسميهم مؤرخنا الوطنى مانيتون «هكسوس» • ثم يعرض لتفسير الاسم فيقول ان معناه «ملوك الرعاة» • على أن المؤرخ قد اعتمد فى هذا التأويل على لغة المصريين فى عصورها المتأخرة[1] • وجاء المؤرخ اليهودى «يوسف» وهو الذى نقل عن « مانيتون » فسمى الهكسوس « أسرى الرعاة » •

وأكبر ظنى أن يكون ذلك أثرا من الخلط بين اللفظين المصريين «حقا» بمعنى «حاكم» و «حاق» بمعنى «غنيمة» • و «يوسف» لم يكن مؤلفا وانما كان ناقلا ؛ نقل عن « مانيتون » وحرف مانقل لحاجة فى نفسه[2] •

وهو بعد ذلك قد كان غريباً عن مصر ، وعن لغة المصريين ، وكان اعتماده على الرواية — كغيره من الكتاب — أكثر من اعتماده على الاستقصاء والتحرى • سمع تأويل الشعب لاسم الهكسوس ، فنقل عنهم ثم خرج ودون • وللشعوب غرام عجيب بتفسير الغامض من كل اسم ولفظ ، تدفعهم الى ذلك نوازع مختلفة لا تكاد تخلو من غرض • فأنت تسمع من أهل التأويل فى مصر اليوم ، أن الفيوم مثلا معناها « ألف يوم » وأن « ميت رهينة » معناها « مائة رهينة » لأن الرومان كانوا يأخذون من سكانها المسيحيين فى كل يوم « مائة رهينة » ليرهبوا أهلها ، وليردوهم عن دينهم • وأن « سمالوط » معناها « سماء لوط » وآية ذلك أن حاكما من حكامها يدعى « لوط » قد طغى واستعلى وقال للناس

(١) لما ساءت أمور المصريين إبان انحلال دولة الفراعنة ودخول النوبيين عند مطلع القرن الثامن قبل مولد المسيح ، نزل المصريون بألسنتهم من سماء اللغة الفصيحة الصحيحة المقدسة إلى حضيض الأرض ، واتخذوا من دارج القول وعامة اللفظ لغة لهم ، وهى ما اصطلح المؤرخون على تسميتها باللغة الديموطيقية أى « لغة العامة » .

(٢) كان الرجل موتوراً من «أبيون النحوى السكندرى » أحد علماء زمانه ، وكان ذلك الأخير من أشد أهل زمانه بغضا لليهود ، رماهم فى أصلهم ، وطعن عليهم فى أخلاقهم ، ووصفهم بصفات منفرة كريهة ، فانبرى له يوسف ونقل من حطام مانثون ذلك الفصل الذى عقده فى تاريخ الهكسوس، وحاول أن يخلط بين الهكسوس واليهود، ليرد عن قومه مارماهم به « أبيون » السكندرى .

أنا ربكم الأعلى ، ثم اتخذ لنفسه سماء من زجاج ، ورفع عليها عرشه ، فأصبح الناس من أجل ذلك يسمون تلك المدينة « سماء لوط » . وأن كلمة «فرعون» أصلها «فرعون» ؛ وعون « هذا هو عون بن عنق » . وكان طاغية أرهب جيوش المسلمين . فلما دهمته ذات يوم وأعانها الله على هزيمته ، لاذ بالفرار فتهلل الناس لذلك وقالوا فر عون . وأن «أبو جرج» والقرية التى تليها من ناحية الغرب وهى « صفط أبو جرج » قد كان يقوم على حكمها جبار يدعى « أبو جرج » ، بينما قامت على حكم «صفط» امرأة يقال لها « صفاء » رزقها الله مالا وافرا وجمالا رائعا . فتراءى « لأبى جرج » أن يتزوج من « صفاء » ليفيد من مالها ويستمتع بجمالها . ورأت هى فى ذلك ما يحميها من بأسه وعدوانه ، ويظلها بقوته وسلطانه. ولما قبلت سماها الناس يومئذ « صفة أبو جرج » . وصارت التاء طاء فأصبحت « صفط أبو جرج » وأطلق ذلك الاسم على القرية من ذلك الوقت وما زالت تحمله حتى يومنا هذا . وأمثلة ذلك كثيرة نسمعها من أهل مصر فى أقاليمها المختلفة .

ومن الجائز أن الكاتب اليهودى قد كان متأثرا بقصة ذلك النبى الكنعانى « يوسف بن يعقوب » . وأنه قد تأثر بما وقع ليوسف من اخوته حينما حقدوا عليه فألقوه فى غيابة الجب ، ثم جاءت سيارة فأخذوه الى مصر وباعوه بيع الأسير الرقيق . ولعل الكاتب قد عمد الى هذا التأويل ليلائم بين حكام الهكسوس وبين الكنعانيين الذين وفدوا على مصر فى أعقاب الصديق ، وليدفع عن اليهود ما رماهم به أبيون السكندرى من نقائص .

والمعقول أن يكون مرجع اسم الهكسوس وأصله الى الكلمة المصرية « حقا خاسوت » بمعنى « حاكم البلاد الأجنبية » ويجمع على « حقاو خاسوت » أى « حكام البلاد الأجنبية » . وبذلك نعت ملوك الهكسوس أنفسهم على ما خلفوا من آثار فى هذا الوادى .

ولعل أبعد عهود اللغة المصرية بهذا الاسم أن تكون أيام الدولة الوسطى • لأن اللفظ قد ورد فى « قصة سنوهى » المعروفة ابان حكم هذه الدولة • « وسنوهى » قـد نعت به حكام فلسطين الذين رآهم وعاشر بعضهم بعد هروبه من مصر واقامته فى تلك الأقاليم الأسيوية •

كذلك ورد اللفظ أيام الدولة نفسها فى نقوش قبرأمير من أمراء الأقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد (اقليم بنى حسن) يدعى « خنوم حتب » وقد عاش ذلك الأمير فى أيام الملك « سنوسرت الثانى » ، وسجل فى قبره حادثا من الحوادث التاريخية ، يشير الى مجىء احدى القبائل الاسيوية الى مصر •

والظاهر أن احدى قبائل فلسطين قد هاجرت الى مصر فى أيامه ، وعلى رأسها أمير يقال له « أبشاى » يحمل لقب « حاكم البلاد الأجنبية » وهو نفس اللقب الذى كان يحمله ملوك الهكسوس فى مصر • ولقـد سجل « خنوم حتب » رسوم أعيان تلك القبيلة ، يتقـدمهم أميرهم المـذكور • وأنا لنتبين من صـورهم وسحنهم وأزيائهم أنهم كانوا ساميين ؛ فشعورهم طويلة ولحاهم مرسلة ، وأرديتهم ملونة ، ومظاهرهم تخالف مظاهر المصريين جميعا •

ويكاد علماء التاريخ المحدثين أن يتفقوا جميعا على المعنى الذى قدمنا فى أصل تسمية الهكسوس • حاشا المؤرخ الألمانى الكبير « ادوارد ماير » الذى ينظر الى ذلك الرأى فى شىء من الشك ، وان كان لا يكاد يتخذ لذلك الشك سبيلا أو يقيم عليه دليلا •

وللهكسوس فى لغة المصريين أسماء مختلفة ؛ نشأ بعضها عن الكره الذى ملأ قلوب أهل البلاد لأولئك الذين اجتاحوا أرضهم ، واغتصبوا أوطانهم ، ويشير بعضها الى وطن القوم اشارة عامة ليس فيها شىء من ملكهم ، ونهبوا أرزاقهم ، وآذوهم فى دينهم ودنياهم ، وأذلوهم فى التخصيص • فالمصريون يسمون الهكسوس « الطاعون » أو « الوباء » وتلك تسمية أساسها الكره والبغض من غير شك ، كما يسمى الأوربيون أهل المغول « الخطر الأصـفر » أو « الوباء الأصـفر » وأسموهم

« العامو » بمعنى « الأسيويين » أو « الساميين » ؛ وأسموهم « منتيوستت » بمعنى « البدو الأسيويين » .

وقديما كان المصريون يطلقون هذا الاسم على القبائل الاسيوية التى كانت تغير على المناطق الشمالية الشرقية من دلتا الوادى ، ثم أسموهم « شاسو » أى « الرعاة » وهو اسم كان المصريون يطلقونه على البدو الضاربين على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وأصلهم من فلسطين . على أنه يلاحظ فى نهاية القول أن المصريين كانوا يطلقون كلمتى « عامو » و « منتيوستت » على الساميين عموما .

أصل الهكسوس وسبب هجرتهم إلى مصر:

وآراء المؤرخين تختلف ، وأقوالهم تتضارب ، عند الكلام عن أصل الهكسوس وموطنهم الأصيل . فمن قائل انهم من بطون القبائل السامية المنتشرة فى فلسطين وفى ربوع سوريا وبلاد الجزيرة العربية ، نزحوا الى مصر بسبب ما أصاب أوديتهم من قحط وجفاف . ومن قائل ، انهم هاجروا من الأقطار السورية حينما ضاقت عليهم أرضها بسبب ما حل بهم من ظلم حكام « ميتانى » من جهة ، وبسبب ضغط المهاجرين الآريين من جهة أخرى . وهذا هو رأى المؤرخ الألمانى المعروف « ادوارد ماير » الذى يرجح أن غارة الهكسوس على مصر انما وقعت فى الثلث الأول من القرن السادس عشر قبل مولد المسيح ، وأنهم انما أغاروا عليها لاجئين مضطرين لما نزل بهم من حيف وضيق ، بعد ما وقعت هجرة الآريين فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح .

على أن كل شىء فى مصر خصوصا ، وفى الشرق القريب بوجه عام ، قد كان ممهد يومئذ لمثل ذلك الغزو . فالفوضى كانت تسود كل نواحى الحياة المصرية ، واختلاف الزعماء يقطع أوصال هذا الوطن المنكوب ، ويسوق الشعب كله الى طريق الموت المادى والأدبى والسياسى فى وقت واحد ، ثم يدفع الشر الى مصر دفعا قويا . بينما يزداد الضغط على الهكسوس فى أوديتهم ، فيدفعهم الى الهجرة . فالشرق القريب كله كان يضطرب

بهجرة تلك الشعوب الآرية، واندفاعها بين أقاليمه المختلفة. والهكسوس — فيما نرى — قد كانوا أصحاب غزو وغارة ، يجيدون صنعة الحرب ، ويحسنون فنونها المختلفة . فلما دهموا مصر هال أهلها يومئذ ما رأوا لهم من عدة الحرب وسلاحها ، ومن خيل العدو وعجلاته الحربية . ولم يكن فى طاقة المصريين يومئذ أن يستطيعوا لقاء العدو ومقاومته ، فدخل الهكسوس مصر فى سهولة واجتاحوا شمالها فى غير عسر .

ولما كانت هجرة الشعوب الآرية واغارتهم على الأقطار الاسيوية قد وقعت فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح ، فمن المرجح أن تكون هجرة تلك القبيلة الاسوية التى أشرنا اليها أيام الأسرة الثانية عشرة كانت أول هجرة قام بهـا الساميون الى مصر فى ذلك الوقت . ومن يدرى لعل قبائل أخرى قد فكرت فى الالتجاء الى مصر ، فردها عن ذلك ما كانت تخشاه من قوة المصريين وازدياد سلطانهم السياسى ، وانما اعتمـدت تلك القبيلة التى هاجرت تحت امرة « ابشاى » على ثراء مصر من ناحية ، وعلى ما كان لها من العشم فى حسن ضيافة المصريين من ناحية أخرى . فهى قدكانت تعرف ذلك وأكثر من ذلك . وكان أهل مصريلقون عند تلك القبيلة السامية وأمثالها فى ذلك العهد خير ما يلقى الطارق من كرم اللقاء وحسن الضيافة . وفى حـديث « سـنوهى » عن هجرته الى فلسطين واقامته فيها ، ما ينهض دليـلا لذلك ؛ فهو لقى منهم خير الصحاب ، وتمتع عندهم بأجمل العشرة وأحسن الجوار ، ثم أصهر الى أحد شيوخهم فأضحى ولده من بعده لا يعدمون فى فلسطين أبر الاعمام وأكرم الأخوال .

كان ذلك فى أيام الأسرة الثانية عشرة ، وأمور المصريين على خير حال ، وسلطانهم مضرب المثل فى العزة والقوة والجاه العريض . فما كاد يدال من أيامهم الى زمن الخلاف والفوضى ، وعصور الاضطراب والمحن الجبارة والانحلال السياسى ، حتى نزل الضعف منزل القوة ، وتحللت تلك القبائل الاسيوية من كل عهد وقيد .

فنسيت تقاليدها السياسية ، ولم ترعليها بعدئذ من حرج فى أن تهاجر الى مصر ، لا هجرة الضعيف اللائذ ، ولا هجرة اللاجىء المقهور ، وانما هجرة الفاتح المغير •

فلن يكون عجبا بعد هذا كله أن تغير بعض تلك القبائل السامية على مصر • والهكسوس — أكبر الظن — قد كانوا ساميين • وكان وطنهم الأصيل فلسطين • وفى تاريخ أيامهم ما يشير الى ذلك ويقوم دليلا عليه • فهذه طائفة من أسماء ملوكهم تشير الى انهم آن لم يكونوا عبريين ، فقد كانوا أقرب الناس اليهم على كل حال [1] •

على أن أسماء الملوك من الهكسوس لم تخل من أسماء غير سامية مثل « بنون » و « خيان » و « سلاطيس » و « أبا خنان » • ولن يكون فى ذلك ما يمنع من أن يكون أصحاب تلك الأسماء من أصل سامى • فأسماء نصارى مصر — وأكثرها أوروبية محضة — لايمكن أن تشير الى أنهم غير مصريين • وانما دفعهم الى ذلك الضعف السياسى ، والتقرب الى أوروبا المسيحية ، طمعا فى حماية الأقليات • وأنا أرجو أن يكون نصارى مصر قد فطنوا الى أن فى ذلك مسخا لأسمائهم ، وتشويها لحقائق التاريخ • وأن الشرق أولى بهم من الغرب • وأن المسلمين فى مصر أبر بهم وأحنى عليهم من أهل الاستعمار وأصحاب المطامع الذين يدينون دين المسيح فى أوروبا وغير أوروبا ، فالدين لله وحده • ومصر وطن لنا جميعا • فاذا استنكفوا أن يسموا أنفسهم باسماء المسلمين • فعليهم باسماء أجدادنا من المصريين فهم واجدون فيها ما هو أولى بهم وأشرف لهم من أسماء الأوربيين ألف مرة ومرة • ولست أرى كذلك من الكرامة ولا من المروءة أن يتجرد نصارى مصر من مظاهرهم الوطنية فيسمون أنفسهم

---

(١) من تلك الأسماء « عنات إيل » و « يعقوب إيل » من أسماء الملوك ثم « عامو و « يعمو » و « سمقن » و « عبد » و « نحمان » من أسماء الرعية .

« الخواجات » ليخلصوا من المظاهر المصرية ، وليخدعوا العالم عن الحقيقة ، ويظهروه على أنهم وأهل أوروبا المسيحية على قدم المساواة .

ملوك الهكسوس :

قسم مانيتون ملوك الهكسوس الى أسرات ثلاث : فعد للأسرة الخامسة عشرة ستة ملوك هم : « سلاطيس » و « بنون » و « أباخان » و « أبو فيس » و « يناس » ثم « أسيت » (١) .

ويلى أولئك فيما بقى من تراث « أفريكانوس » أسرة أخرى هى السادسة عشرة . جعل حكامها اثنين وثلاثين ملكا . ثم أردفها بالأسرة السابعة عشرة ، وجعل ملوكها فريقين : فريقا من الهكسوس ، وعددهم ثلاثة وأربعون ، ومثلهم من المصريين يحكمون فى طيبة . وينتهى حكم الفريقين بخروج الهكسوس من مصر .

وبين آثار ذلك العصر ومخلفاته الكتابية ما يظهرنا على وجود ملوك ثلاثة اسم كل منهم « أبو فيس » ، وهم على التعاقب : « عاأوسر رع أبو فيس » و « نب خبش رع أبو فيس » و « عا قنن أبو فيس » .

هذا وبين ملوك الهكسوس فريق يسمون أنفسهم حكام البلاد الأجنبية وهم « سمقن » و « عنات ايل » (٢) ثم « خيان » (٣) .

وفريق ثالث من ملوك الهكسوس لقب كل منهم نفسه بلقب « الاله الخير » أو « الاله الطيب » جريا على عادة السلف من فراعين مصر وأولئك هم على التعاقب : « عا حتب رع » و « أو سر رع » و « خع أو سر رع » و « خع ان رع » و « ما عت آيب رع » و « نب تاوى رع » ثم « خع مو رع » .

---

(١) لم تسجل الآثار من أسماء أولئك غير اسمى ملكين ، أحدهما « أبو فيس » والثانى « يناس » وأكبر الظن أن يكون ذلك الأخير هو بعينه « خيان » .

(٢) ليس يملك التاريخ من أسماء أولئك الملوك غير جعلين، أحدهما من تل اليهودية والثانى من تل بسطة .

(٣) وجد اسمه على جعل أيضاً .

وفريق رابع جعلوا أنفسهم من أبناء الشمس جريا على عادة ملوك مصر من الفراعنة • وليس يملك التاريخ من آثارهم غير أجعال تسجل أسماءهم على الوجــه الآتى : « ابن الشمس شيشى » « ابن الشمس سكت» «ابن الشمس يعقوب ايل» «ابن الشمس ايعى» «ابن الشمس عامو » « ابن الشمس قار » •

ثم عثر بين أنقاض منف على أثر يحمل أســماء ملوك ثلاثة من أيام الهكسوس هم « عاقن » و « شرق » و « أبو فيس » (١) •

آثار الهكسوس

وبعد فأنا أشعر بأن عشاق التاريخ المصرى وقراءه من غير الأثريين وأصحاب التخصص انما يضيقون به وينفرون منه اذا ماجاء محشوا بأسماء الملوك وآثارهم وسنى حكمهم • وان أكثر الذين ســقطوا على كتب التاريخ المصرى فى أطوار دراستهم قد نفروا منه وهجروه من أجل ذلك • وانى لأعذرهم فيما كانوا يفعلون ، لأن آثار الملوك وعهودهم وأعمالهم المختلفة ليست الا وسيلة الى وصف ألوان الحضارات الانسانية وتحديد فتراتها وتطورها • ومقدار ما أصابت الأمة من تقدم فى العلوم والآداب والفنون المختلفة ، ومقدار حظها من المساهمة فى تحضير الدنيا ونصيبها من تقدم الفكر الانسانى • ولقد أشعر أن الله وفقنى الى أكثر ما يبتغى القراء والطلاب فى اخراج الجزء الأول من تاريخ مصر الفرعونية (٢). وأنا عظيم الأمل فى أن أصيب بعض ذلك التوفيق فى اخراج السفر الثانى ان شاء الله • على اننى أرجو ألا يضيق القارىء بما يجد فى هذا الفصل من ذكر

---

(١) يرجع الأثر إلى أوائل القرن السادس قبل مولد المسيح ، دونه كاهن من كبار كهان منف . وسجل عليها أسماء السلف من آبائه الذين ورث عنهم ذلك المنصب الدينى الخطير . ثم أسماء الملوك الذين عاش آباؤه فى ظلهم ومن بين أولئك ثلاثه من الهكسوس والأثر محفوظ بمتحف برلين

(٢) فى « موكب الشمس » الجزء الأول فى تاريخ مصر الفرعونية ، من فجره الصادق إلى آخر الضحى .

ذكر أسماء الهكسوس وآثارهم ، لأني مضطر الى ذلك اضطرارا ، ما أكاد أتحلل منه • فالهكسوس قد كانوا غرباء ومدة حكمهم كانت قصيرة فهي لا تعدو قرنا ونصف قرن • ومع ذلك فقد أثرت هذه الفترة فى توجيه سياسة الدنيا على ضفاف النيل وفى أقاليم الشرق القريب • ومن الخير بعد هذا أن نضع أبصار القراء على آثار أولئك الملوك ليعرفوا مدى توغلهم فى أقاليم الوادى ، وانتشار سلطانهم بين أقطار الشرق • وأنا أعد القارىء ألا يطول الحديث فهو لن يعدو أيام ملوك ثلاثة كل منهم يدعى « أبوفيس » قامت ثورة الحرية فى أيام أحدهم على كل حال • فأما أحدهم فهو الملك « عا أوسر رع أبو فيس » ومن آثار أيامه :

١ — حطام أداة من أدوات الكتابة عثر عليها فى واحة الفيوم (١) يزعم صاحبها أنها أهديت اليه من ذلك الملك ، وينعته فيها بنعوت تشير الى شدة بأسه واتساع سلطانه ، منها أنه كان « ربا للشمال والجنوب » و « خليفة الشمس على هذه الأرض » ، « لا نظير له فى بقاع الأرض جميعا » ، و « أنه بطل حرب وقرم نزال تمتد شهرته الى أطراف الدنيا » •

٢ — أثر من حجر لا يكاد يحمل غير اسمه ، وجد فى جبلين ، وفى ذلك ما يشير الى أن سلطانه قد وصل الى تلك البقاع من وراء طيبة (٢) وان حكام الصعيد فى أيامه لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الاحتفاظ بمظاهر استقلالهم فى حدود ما يحكمون • وليس ببعيد أن يكون الهكسوس قد أقاموا بعض الحصون فى تلك البقاع النائية من صعيد الوادى ، وأن يكون بعض أمراء الأقاليم من المصريين قد استقلوا بما وراء ذلك من « الكاب » حتى مطلع الوادى عند جزيرة فيلة •

٣ — كذلك ورد اسمه فى فقرة بين سطور قرطاس من القراطيس

---

(١) يوجد الأثر فى متحف برلين تحت رقم ٧٧٩٨

(٢) الأثر محفوظ بمتحف القاهرة تحت رقم ٢٩٢٣٨

البردية تشـير الى حادث عله وقع فى العام الثـالث والثلاثين من أيام حكمه [1] .

٤ — وأخيرا وعاء من جرانيت يحمل اسمه واسم ابنه ، عثر عليه فى قبر « أمنوفيس الأول » بجبانة طيبة ؛ ولعل فى ذلك ما يشير الى أن نفوذه قد بلغ طيبة ؛ وجائز أيضا أن يكون الأثر قد حمل الى طيبة من مكان بعيد .

وأما ثانى أولئك الملوك فيدعى « نب خبش رع أبو فيس » ولم تخل أيامه من آثار تشير اليه منها :

١ — خنجر من برونز يحمل اسمه ، عثر عليه فى جبانة منف [2] وفى مدفن رجل يقال له « عبد » ولم يكن « عبد » هـذا صاحب الأثر المذكور . وانما كان صاحبه رجل يقال له « نحمان » . وظاهر من هذين الاسمين أن صاحبيهما لم يكونا من المصريين . ومن المرجح أن يكون الأول من ولد الثـانى أو من أقاربه أو من أتباعه . وكان « نحمان » تابعا للملك يحرسه فى غدواته ورواحاته ، فلا غرابة فى أن يحمل السلاح ويعتز به أبناؤه أو أتباعه من بعده ، ولا غرابة فى أن يتخذ رجل مثل « أبوفيس »حراسه من الاسيويين دون المصريين ، فمن الطبيعى أنه كان لا يأمن جانب المصريين ، بل كان يخشى منهم على حياته ؛ على أن أكثر ما يهمنا من أمر ذلك الأثر ، هو مايتحلى به من نقوش تشير كلها الى أن الصانع المصرى فى ذلك الوقت قد تأثر بما كان شـائعا من فنون جزيرة كريت. ولسوف نشير الى ذلك فى حينه .

٢ — كذلك ورد اسم هذا الملك على قطعة من حطام وعاء ينعت فيه نفسه بنعوت الملوك من فراعين مصر فيسمى نفسه « الاله الخير » ويسمى

---

(١) يعرف هذا القرطاس فى الدوائر العامية باسم بردية ريند Rhind الحسابية وهى موجودة بالمتحف البريطانى. Peet, E.TheRhind Mathematica lPap. Lilverpool 1923.

(٢) لأثر محفوظ بمتحف القاهرة .

نفسه « ابن الشمس وحبيبها» •على أن ذلك الحاكم لم ينفرد وحده بين ملوك الهكسوس بذلك الانتساب الى الشمس • وانما الواقع أن أكثرهم قد فعلوا ذلك • وانى حين أفكر فى تلك الظاهرة أكاد أشعر أن لكهان الشمس من أهل هليوبوليس أثرا فى هذا التوجيه • وهم قوم عرفوا بنشاطهم العجيب فى التبشير بعقيدتهم فى جميع عصور التاريخ المصرى ؛ ولم يكن تقديم مثل تلك العقيدة الى الهكسوس بالأمر العسير ؛ فهم قد كانوا فى آسيا ، والاسيويون على العموم كانوا يعرفون التفكير فى الشمس وما عداها من كواكب السماء ونجومها • ومن يدرى لعل كهان هليوبوليس قد فكروا يومئذ فى الاستعانة بقوة أولئك الفاتحين على بعث دينهم ونشره فى أقاليم الوادى • ومعروف كذلك أن الهكسوس قد تركوا آثارا حول هليوبوليس فى المكان المعروف باسم « تل اليهودية » ؛ فلقد كشف لهم هناك عن أنقاض حصن ، كما عثر فى جبانتها على أجعال تحمل أسماء بعض ملوكهم •

وثالث أولئك الحكام هو الملك « عاقنن رع أبوفيس » ومن آثار أيامه مايأتى :

١ — قطعة من حطام وعاء تحمل اسمه • وجدت فى خرائب منف[١] ولا غرابة فى ذلك فالهكسوس قد وصلوا الى منف وأقاموا فيها • وفى أخبار « مانيتون » ما يشير الى ذلك فهو يحدثنا عن مليك لهم يقال له « سلاطيس » كان يختلف الى منف ويقيم فيها لوضع الخراج وتوزيعه على أقاليم الوادى •

٢ — كذلك ورد ذكره على مذبح من حجر الجرانيت الأسود • وليس يستبعد أن يكون قد وجد فى خرائب منف أو عند أطلال هليوبوليس • وعلى الأثر من النصوص ما يشير الى أن الملك قد أقامه لأبيه المعبود « ست » رب « أواريس » •

(١) الأثر محفوظ بمتحف برلين تحت رقم ٢٠٣٦٦

٣ — وأخيرا تمثال له عثر عليه فى تانيس (أواريس) يحمل اسمه وألقابه ومن بينها لقب « أمير الجيوش » وظاهر من وضعه أنه كان شديد الاعتزاز به •

وأكاد أشعر حين أنظر فى هذين الاثرين ، وما جاء عليهما من اهتمام الملك بمعبوده « ست » رب أواريس الذى يزعم أنه جعل ملك الدنيا تحت قدميه • ثم من اعتزاز الملك بلقب «أمير الجيوش» وجعله ذلك اللقب ضمن أسمائه ، أنه هو بعينه صاحبنا « أبوفيس » الذى رمى بشرارة الثورة الأولى عندما أخذ يتحدى الملك المصرى الحاكم فى طيبة « سقنن رع » ويتحرش به • وأغلب الظن أن « أبو فيس » هذا قد كان رجل حرب وكفاح • وكان يحس لنفسه شيئا من قوة • ويكره أن يرى فى صعيد البلاد من المصريين من يستقل ببعض أقاليمه • وكان لأمراء طيبة فى ذلك الوقت قوة أقل ما يقال فيها انها كانت جديرة بالاعتبار • فأثارت اهتمام « أبوفيس » حتى فكر فى أن يمتحنها • ومهد لذلك بارسال الرسل الى بلاط طيبة • وسنرى عند الكلام عن الثورة كيف أن بعض المؤرخين قد فكر فى أن يكون أولئك الرسل قد جاءوا يأتمرون بالملك ليقتلوه • وكيف أن اسم « ست » معبود الهكسوس قد أقحم فى أمر الاعتداء • واتخذ وسيلة من وسائل التحرش بالملك المصرى • ومهما يكن من شيء فأنا أشعر فى نهاية الأمر أن ملك الهكسوس قد فكر فى أن يمتحن أميرنا المصرى ليرى مبلغ قوته واقدامه على الحرب أو احجامه عنها • وكان يطمع فى أن يظفر به ليبلغ مدى ماكان يحلم به من سلطان على هذا الوادى •

مبلغ سلطان الهكسوس

جاء فى أخبار مؤرخنا الوطنى «مانيتون» أن الهكسوس قد استولوا على مصر فى سهولة • وملكوها دون أن يشعلوا نار حرب • لأن أمور المصريين

يومئذ كانت مضطربة أشد الاضطراب • ولأن البلاد قد كانت مستعدة للسقوط مقبلة عليه فى غير تردد • فالفوضى قد عمت أمور المصريين جميعا منذ عام ١٧٥٧ قبل مولد المسيح • وملكت عوامل الضعف كيان دولتهم فما يكاد يفلت منها وما تكاد ترفه عنه •

وبين آثار المصريين ما يؤخذ حديث « مانيتون » ؛ فهذه بردية ساليه (Sallier) المعروفة (١) تحدثنا عما كان فى مصر يومئـذ من خطر ووباء • وعما أصابها من فقر الى رجال الحكم والنظام من أبنائها • وفى ذلك ما يشير الى أن أحوال مصر السيئة قد كانت كلها متفقة على الشر مدفوعة اليه دفعا قويا • كأنما كانت وارادة الغزاة على موعد واتفاق • فبلغ الهكسوس دلتا الوادى وسـيطروا على شمالها • جاؤوها بخيلهم وعجلاتهم الحربية • وتطلع المصريون الى ذلك الغزو فملأهم الخوف وملكهم الرعب من سلاح العدو الذى لم يكن لهم به عهد من قبل •

جعل الهكسوس حاضرة ملكهم (أواريس — صان الحجر) من شرق الدلتـا • ثم أخذوا يمدون سلطانهم على أقاليم الوادى • فتركوا غرب الدلتـا تحت امرة حكام من الوطنيين يسميهم « مانيتون » حكام الأسرة الرابعة عشرة • ثم واصلوا زحفهم نحو الجنوب فبلغوا « منف » واتخذوا منها قاعدة لادارة شئون البـلاد الاقتصادية • وبين أخبـار « مانيتون » ما يشير الى فظائع الهكسوس فى مصر وما كان من تلك الأهوال المروعة التى هدت كيان المصريين هدا • فهم قد حرقوا القرى والمدائن وخربوا العمائر والمعابد • وأخذوا الناس بالصارم العنيف ، فذبحوا الرجال ، وساقوا الأطفال ، وسبوا النساء ، ثم وصل مليكهم سلاطيس الى «منف» واتخذ منها قاعدة لادارة شئون البلاد الاقتصادية • وكان يختلف اليها بين الحين والحين • بذلك يحدثنا « مانيتون » ؛ على أن أمر سلطان الهكسوس لم يقف عند « منف » وانما ظلوا يواصـلون زحفهم ، ويمدون سلطانهم حتى بلغوا حدود الأقاليم الوسطى من ناحية الجنوب •

---

(١) وجدت هـذه الأخبار مدونة على جدران غار يقال له « غار أرتميس » على مقربة من جبانة بنى حسن •

وبين اسناد التاريخ المصرى ما يؤيد بعض رواية « مانيتون » ويشير الى بلوغهم ذلك المدى من حدود الأقاليم الوسطى •

جاء فى أخبار الملكة «حاتشبسوت» انها أصلحت دار عبادة للمعبودة « حاتحور » بجهة القوصية فى شمال أسيوط ، وانها عمرت الخراب وأتمت الناقص من معابد الوادى وعمائره بعد الذى أصابها على أيدى حكام الهكسوس[1] •

وفى حديث الملك « كامس » أحد أبطال ثورة الحرية • مع أمراء جنده ورجال بلاطه [2] مايؤيد امتلاك الهكسوس لاقليم الاشمونين بعد «منف» وبلوغهم بلدة «القوصية» من شمال أسيوط [3] •

هذا ويرى بعض المؤرخين من أمثال « ادوارد ماير وفلندر بترى » أن نفوذ الهكسوس قد تعدى حدود ماذكرنا فبلغ ما وراء طيبة ويستندون فى رأيهم الى ما ظهر من تدوين اسمى الملكين « خيان » و «أبوفيس» فى منطقة «جبلين» من نواحى طيبة • على أن التاريخ الذى يتلمس التوافه من الأمر أحيانا ، ليقيم حجه ويظهر آيته ، قد لا يستند مطمئنا الى ما ذهب اليه أولئك المؤرخين من امتداد نفوذ الهكسوس الى

---

(١) وجدت هذه الأخبار مدونة على جدران غار يقال له « غار أرتميس » على مقربة من جبانة بنى حسن

(٢) وردت أخبار الكفاح فى أيام ذلك البطل على لوح يعرف بلوح « كارنارفون » .

(٣) كانت القوصية تعتبر الحد الفاصل بين أقاليم الجنوب وأقاليم الشمال • ويتجلى أمر ذلك بوضوح عند النظر فى التقسيم الإدارى الذى استقر فى أيام الإمبراطورية المصرية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها، حيث جعلت إدارة الأقاليم المصرية من مطلع الوادى عند اسوان إلى شمال أسيوط تحت إشراف كبير وزراء الصعيد • وتركت إدارة الأقاليم من أسفل أسيوط إلى أقصى الشمال تحت إشراف كبير وزراء الشمال . هذا وقد سمي المصريون معبود أسيوط « فاتح الطرق » وصوروه على هيئة كلب من بنات آوى، وأكبر الظن أنهم كانوا يتخذون منه علماً فى زحفهم نحو أقاليم الشمال • فى اسمه مايشير إلى ذلك. وكانوا يدعونه « الحارس » وفى ذلك مايشير إلى عقيدتهم فيه . جعلوه حارسا لملكهم فى الصعيد. ومن المرجح أن المصريين قد كانوا يتخذون من « أسيوط » حصنا يدرأون به إغارة الطامعين فى ملكهم •

ما وراء طيبة • لأننا نعلم أن أقاليم الصعيد الأقصى من مطلع الوادى الى شمال أسيوط قد كانت كلها تحت أمرة المصريين • واذا كان لابد من النظر الى مثل هذا السند الضعيف من أسناد التاريخ ، فمن المرجح أن تكون بعض جيوش الهكسوس فى محاولاتها قد بلغت ما وراء طيبة فى فترة من فترات الضعف التى مرت بحكام الصعيد • ولما لم تستطع البقاء كرت راجعة الى الشمال ، واكتفت بحظها من أقاليم الشمال والوسط • وجائز أيضا أن يكون الهكسوس لم يعدموا من والاهم من الخونة المصريين الذين كانت تدفعهم الأطماع السياسية والمادية يومئذ الى الخروج على بيت طيبة • فاذا صح هذا الفرض فمن الجائز أن يكون أولئك الخونة قد اتخذوا من تدوين أسماء بعض ملوك الهكسوس فى تلك البقاع النائية من صعيد الوادى مظهرا من مظاهر الولاء للهكسوس والخروج على الحكومة الوطنية فى طيبة •

واذا جاز أن يكون الهكسوس قد بلغوا طيبة فى بعض أيامهم ، فلن يكون غريبا أن يقع ذلك فى أيام مليكهم «خيان» ؛ فهو قد كان فيما يظهر من أقوى ملوك الهكسوس وأشدهم بأسا وأوفرهم أثرا ، وأوسعهم سلطانا • وليس أدل على ذلك من كثرة ما خلف من آثار لعلها لم تتفق لغيره من حكام الهكسوس • وهى لم تقتصر على مصر فحسب ، وانما عدتها الى سوريا وفلسطين ، وبلاد النهرين ، وجزيرة كريت [1] •

ويحاول « ادوارد ماير » أن يتخذ من تلك الظاهرة دليلا على انتشار سلطان الهكسوس فى تلك البقاع من أرض الشرق القريب ومن جزائر

---

(١) وجد أسم خيان على كثير من الآثار، تتمثل فى أجعال وغير أجعال: منها ماوجد فى مصر، ومنها ماوجد فى أقاليم الشرق وجزائر البحر. وجد اسمه مدوناً على قطعة من الجرانيت الأسود فى جبلين من نواحى طيبة ، ثم وجد على طائفة من الأجعال فى فلسطين وسوريا ، ثم على تمثال لسبع وجد فى بغداد ، وانتهى إلى المتحف البريطانى بمدينة لندن . ثم على غطاء وعاء من رخام عثر عليه بين أنقاض أحد قصور « كنوسوس » بجزيرة كريت، ثم انتهى إلى متاحف أوروبا .

بحر الروم وهو رأى قد يخالفه فيه بعض الناس [1] وأكاد حين أنظر فى رأى المؤرخ العظيم ، أن أتخيل طيفا من شك يجعلنى أدور من حوله دون أن أطمئن الى قبوله فى سهولة ، لأن آثار « خيان » قليلة ، ولأنها قد تكون بلغت تلك البقاع عن طريق البدل والتجارة • ثم أحاول من ناحية أخرى أن خالف عن رأى « ماير » فلا أكاد أطمئن الى ذلك كثيرا • فقلة الآثار وحدها قد لاتكفى لاثارة الشك ، لأن آثار الهكسوس جميعا بالقياس الى أيامهم قليلة أيضا • واذا كانت آثار « خيان » فى سوريا وبلاد الشرق لم تتأثر بفنون الشرق وهواه ، وآثرت أو آثر لها أصحابها أن تحمل الطابع المصرى الخالص ، فذلك لأن الهكسوس قد أقاموا فى مصر واستقروا فيها ، وجعلوا فيها عاصمة ملكهم • ولم يعرف كذلك عن الهكسوس أنهم كانوا أصحاب فنون ؛ بل كانوا أهل حرب وغارة • والحروب لاتتيح للناس فرصة التفكير فى الفنون أو النظر فيها الا بمقدار •

ولعل أبصارهم لم تتجه الى الفنون الجميلة وآثار الحضارات الرفيعة الا فى مصر • فلا غرابة اذا فى أن تصدر فنون أيامهم مطبوعة بالطابع المصرى الخالص • ومن الأسباب التى تجعلنى أميل الى رأى «ماير» هو أننا لم نسمع صوت هذه البقاع الشرقية يدوى فى أيام الهكسوس • ولو كان لها صوت لسمعته الدنيا وسجله التاريخ ولجاز أن يكون لها قوة ، ولو كان لها قوة ، لنازعت الهكسوس سلطان الشرق ، أو نزعت على الأقل الى الخلاص من سلطانهم • ولكنها —فيما يظهر— قد آثرت العافية، واستسلمت كما استسلم غيرها لجبروت الهكسوس ، حتى أزال الله ملكهم من عالم الوجود •

---

(١) ومن الذين يرون أن يخالفوا « ماير » فى رأيه زميلنا الدكتور باهور لبيب فى رسالته التى كتبها عن حكومة الهكسوس ، ويتعلل فى ذلك بقلة الآثار . وعدم تأثرها بفنون الأقاليم التى وجدت فيها .

وسبب آخر لا يجوز أن نغفل عنه ، وهو ما نلمحه فى تاريخ الثورة المصرية من بعد قريب ، من ميل أصحاب «كريت» للمصريين ومساعدتهم اياهم فى الجهاد ضد الهكسوس ، فقد يكون فى ذلك مايشير الى أن أهل تلك الجزيرة قد كانوا والمصريين فى الهم سواء .

أكاد أشعر فى النهاية بأن سلطان الهكسوس قد تعدى مصر الى غيرها من أقطار الشرق القريب . فهم كانوا أصحاب قوة وبأس . ومع ذلك نراهم يكتفون من مصر بأقاليم الشرق من دلتا الوادى ، بينما يتركون حكم أقاليمها الغربية لحكام من المصريين يسميهم « مانيتون » حكام الأسرة الرابعة عشرة ويجعل حاضرتهم « سخا » . كما حكم أمراء الصعيد أقاليمه العليا من مطلع الوادى عند فيلة الى أسيوط . واتخذوا طيبة قاعدة لحكمهم .

فنحن لانكاد نتجاوز حدود المنطق كثيرا ، ان نحن وقفنا الى جانب « ماير » ولم نخالف عن رأيه كثيرا . فقد يكون من المرجح أن تلك البقاع من بلاد الشرق القريب وجزائر بحر الروم قد كانت واقعة تحت نفوذ الهكسوس ان لم يكن فى أيام بعضهم ففى أيام مليكهم « خيان » على الأقل .

مدافن الهكسوس وعقيدتهم الدينية

وجدت مدافن الهكسوس متفرقة فى أكثر من مكان من أقاليم الشمال والوسط . وجدت فى تل اليهودية على مقربة من هليوبوليس ، ثم فى أبو صير الملق و «سدمنت» فى الجنوب من اقليم منف . ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن الهكسوس وان كانوا قد حاولوا نشر سلطانهم فى أقاليم الجنوب ، فانه لم يقدر لهم الاقامة فيها . وانما الراجح أن جالياتهم قد نزلت فى الشمال وحول رأس الدلتا ، على مقربة من منف وهليوبوليس أى أنهم نزلوا فى موازين الأرض من أقاليم مصر . كذلك وجدت بعض

قبور الهكسوس فى فلسطين من نواحى «غزة» و «بيت بليت» • هنالك كشفت الأبحاث العلمية فى تلالها عن قبور غير قليلة للهكسوس • وطالعتنا هذه القبور بطائفة من تلك الأجعال التى تحمل اسم الملك « أبوفيس » ، كما عثر فيها على مدافن لحمير أربعة (١) • وليس من شك فى أن دفن الحيوان انما يشير الى تقديسه كما كانت الحال فى مصر الفرعونية (٢) •

وقدماء المصريين قد كانوا أئمة الناس فى هذا البـاب ، وان كان تاريخهم لا يكاد يشير الى شىء من تقديس الحمار — رغم تقديسهم لأكثر أنواع الحيوان — ورغم وجود الحمار فى مصر • فانه كان معروفا منذ أبعد عصور التاريخ • وكان لدى المصريين من دواب الحمـل المعروفة الا أنهم فيما يظهر لم يقدروا فيه الصبر وقوة الاحتمال • كما فعل أهل البلاد العربية فى المشرق والمغرب • فالهكسوس هم الذين قدروه وقدسوه من غير شك ، ثم عبدوا الههم « ست » أو « ست بعل » فى صورة الحمار (٣) .

وليس يستبعد كذلك أن يكون السـاميون الذين قـدروا ذلك الحيوان قد كانوا يقدسونه فى عهودهم البعيدة • وفى تاريخ العرب ما يشير الى تقديرهم لذلك الحيوان • فهذا « مروان بن محمد » أحد حكام بنى أمية كان يلقب بالحمار • لأنه كان لايجف له لبد فى محاربة الخارجين

---

(١) وجدت مدافن الحمير على مستوى يلى مدافن الآدميين • ولعل فى ذلك معنى من معانى تقديس الهكسوس لذلك الحيوان . كذلك عثر فى تلك المدافن على قبور للخيل ولكن على مستوى ينخفض من مستوى مدافن الحمـير . ومن المرجح أن يكون فى دفن الهكسوس الخيل ، مايشير إلى تقديرهم لذلك الحيوان النافع . فهو قد نفعهم وأعانهم على بسط نفوذهم ونشر سلطانهم بين مصر وأقاليم الشرق القريب •

(٢) كان المصريون يعتقدون أن أرواح الحيوانات المقدسة إنما تلجأ إلى تلك القبور لزيارة أصحابها على نحو ماتفعل أرواح الموتى من بنى آدم. ولقد وجدت مدافن الحيوان عندهم منذ أبعد أيام فجر التاريخ •فمدافن البقر قد وجدت فى البدارى قبل مطلع الصبح من تاريخ مصر بزمن بعيد •

(٣) ولقد يؤيد ذلك أن أحـد ملوكهم يدعى « عاقنى » بمعنى « الحمـار قوى » يعنى قوى لأنه خلقه وسواه. وملكه وأيده • وهى تسمية مصدرها الحمد والشكر والإعجاب . ومن الشواهد التى تدل على أن الهكسوس قد عبدوا «ست» فى صورة الحمار . أن اسم الحمار قد بدأ يكتب فى لغة المصريين مخصصاً بصورة الإله ست منذ أيام الهكسوس •

عليه • فكان يصل السير بالسير • ويصبر على مكاره الحرب ، وكان فوق ذلك شجاعا داهية [1] •

وكذلك فعل أهل المغرب العربى فلقبوا بطل برقة « بحمار برقة » وظاهر من هذا كله أن العرب قد فطنوا الى ما فى ذلك الحيوان من قوة الصبر والقدرة على احتمال المكاره •

والهكسوس قد رأوا بين معبودهم السامى « بعل » وبين المعبود المصرى « ست » كثيرا من تشابه فى الصفات والطبائع • فساووا بين المعبودين وجعلوا منهما معبودا واحدا عبدوه فى صورة الحمار • والغالب أن يكونوا قد عبدوا الى جواره معبودات سامية أخرى مثل « عنات » و « عشترة » • وما نعرف أنهم قدسوا غير تلك المعبودات • رغم ما نشاهد فى مظاهر أسمائهم من الاشارة الى معبود المصريين « رع » فوجود اسم رع فى اسمائهم قد يكون غالبا من باب الاستملاح أو جريا على تقليد فراعنة مصر •

فليس فى تاريخ الهكسوس ما يشير الى أنهم عبدوا رب المصريين على الاطلاق • وفى حديث الملكة حتشبسوت الذى مر ذكره ما يؤيد ذلك • فهى قد نسبت الى الهكسوس تخريب المعابد المصرية • ونسبت فعلتهم هذه الى جهلهم بمعبود المصريين « رع » •

والظاهر أن الساميين لم ينفردوا وحدهم بين شعوب الأرض بتقديس الحمار وانما قدسه غيرهم من شعوب الدنيا والذى يقرأ أساطير اليونان • يستطيع أن يقف على قصة « مرسياس Marsyas » ويستخلص منها انه لم يكن فى الأصل ربا للنهر ولا روحا من أرواح منابع الماء وانما كان اله عبد فى صورة الحمار •

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى ص١٦٩ والمخارى ص٢١٣

عاصمة الهكسوس ومعبودها القديم

لم تكن عاصمة الهكسوس حديثة عهد بدنيا المصريين • ولا هى خلقت عند دخول الهكسوس • بل لم تكن أيام الهكسوس أول عهد المدينة بعبادة الاله « ست » ؛ وانما الراجح أن عبادة الاله قد كان قائمة فيها قبل أيام الهكسوس بزمن بعيد • فالمعروف أن عبادة ذلك الاله قد عرفت فى شرق الدلتا أيام الأسرة الرابعة • وكانت قائمة فى مكان يقال له « سزرت » [1] • ولقد اتضح لكثير من علماء الآثار الذين بحثوا فى تلك المنطقة من شرق الدلتا وتعمقوا فى دراسة آثارها وتاريخها[2] ، أن المعبودات التى قدست فى عاصمة الهكسوس وعلى رأسها « ست » ، هى بعينها التى قدست فى عاصمة الرعامسة من بعد ذلك •

ثم بآن للعلماء من بعد ذلك أن عاصمة الهكسوس انما قامت على أنقاض بلدة قديمة قد تكون هى بعينها « سزرت » التى كانت موطنا لعبادة الآلة « ست » فى أيام الدولة القديمة • فلما دخلها الهكسوس • احتضنوا ذلك المعبود بعد أن ساووا بينه وبين معبودهم السامى «بعل» ولما كانت أيام «رعمسيس الكبير» — وأكبر الظن أن تكون أسرته قد نشأت فى تلك البقعة — أقام على انقاض « اواريس » عاصمة الهكسوس عاصمة ملكه الجديدة • وأسماها «بر رعمسيس» أى «بيت رعمسيس » • وغالب الظن أن يكون السر فى اختيار الرعامسة لذلك المكان قد كان هو بعينه الذى دعا الهكسوس الى اقامة حاضرتهم عليه • أعنى أن السبب كان حربيا سياسيا • فالمكان يقع فى شمال الدلتا الشرقى ، فيشرف من هنالك على صحراء العرب فى الشرق ، وعلى بحر الروم فى الشمال •

---

(١) استطاع Junker أن يستخلص هذه الحقيقة من ألقاب موظف يدعى « بحر نفر » الذى كان كاهنا للمعبود ست ، انظر المتون الخاصة بذلك فى :
Maspero, Etudes de Mythologie, et Archéologie Égyptienne, in Bibliothèque Egyptologique Bd. II. 248. Auch. Junker, Giza III. SS. 96.97

بحيث يتيح للهكسوس أن يكونوا على بعد قريب من بقية أملاكهم فى شرق الأرض وجزائر بحر الروم . تلك هى عاصمة الهكسوس التى عرفت باسم « أواريس » والتى بنيت على أنقاضها عاصـــمة الرعامسة والتى أسماها الاغريق « تانيس » ثم أسماها العرب « صان الحجر » . تلك هى المدينة العظيمة التى لعبت دورها الخطير فى تاريخ الشرق السياسى . وهى ما زالت خالدة حتى يومنا هذا . لكثرة ما ضمت أنقاضها من كنوز ، ما تزال تقذف بها الى الدنيا من بين قبور الأسرة الثانية والعشرين .

بعث عبادة ست وتجديدها فى تانيس على عهد الرعامسة

عثر بين أنقاض المدينة على لوح يعرف فى كتب التاريخ والآثار باسم لوح الأربعمائة عام [١] . أقامه رعمسيس الثانى تخليدا لذكرى أبيه الملك سيتى وذكرى جده الأكبر وكان يدعى سيتى أيضا . وظاهر من بناء الاسمين — كانرى — أنهما مشتقان من اسم الاله «ست» تيمنابه واعتزازا بقوته وبأسه . وظاهر أيضا أن الأسرة قد اتخذت من معبود أقليمها ربا اعتزت به وحاولت أن تدفعه الى أمام . ولعـــل شأنهم فى ذلك أن يكون كشأن ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين اتخذوا من معبود أقليمهم «آمون» ربا لأسرتهم ودفعوا به فى مقدمة الأرباب جميعا . كما يتضح من اسم مؤسسها وعاهلهـــا الأول « أمنمحات » (آمون هو الأول) ثم اندفعوا تحت رايته من بعـــد ذلك فأسسوا دولتهم التى عمرت قرنين ونصف قرن من أيام التاريخ الفرعونى .

أما والد رعمسيس الكبير فقد كان — كما نعرف — الملك سيتى الأول . وأما جده فكان قائدا لفيلق الرماة أيام الملك « حور محب » (حوالى

---

(١) أنظر :

Selhe, K. Der Denkstien mit dem Datum des jahres 4 00 der Aera von Tanis AZ. 65, 1930

عام ١٣٣٠ ق٠م٠) ٠ والظاهر أن الصلة قدكانت وثيقة بين حورمحب وبين تلك الأسرة ٠ فقد استعمل سيتى المذكور وولده رمسيس الذى ظل فى خدمتـــه حتى أقام من بعـــده أسرة الرعامسة وعرف يومئـــذ باسم « رمسيس الأول » ٠

وليس من شك فى أن ذلك قد قصد به تخليد ذكرى الرجلين من آباء الملك رمسيس ٠ ولكنه أفاد فى شىء آخر أعظم خطرا وأبعد أثرا فى تحقيق حوادث التاريخ المصرى ٠ فاللوح قد سجل ذكرى اليوم الرابع من آخر شهور القرن الرابع من عبادة الاله ست ٠ وظاهر من مضمون الأثر أن رمسيس قد أراد أن يظهر الدنيا على ما كان لجده وأسرته من فضل فى عبادة « ست » فى ذلك المكان من شرق الدلتا ٠ فلو طوينا القهقرى تلك القرون الأربعة لوقف بنا الزمن عند عام ١٧٣٠ ق٠م ، وهو العام الذى دخل الهكسوس فيه مصر ٠ واتخذوا من أواريس عاصمة لملكهم ٠ وبعثوا فيها عبادة الاله « ست » الذى ظلوا عليـــه عاكفين حتى غيب الله دولتهم من عالم الوجود ٠

يتضح من كل ما ذكرنا أن عبادة « ست » قد كانت معروفة فى ذلك المكان منذ أيام الدولة القديمة ثم بعثت بعد ذلك مرتين : مرة على أيدى الهكسوس ، ومرة أخرى على أيدى الرعامسة ٠

ثورة الحرية

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

بطل الثورة الأولى وأسبابها :

أشرنا فى الحديث عن آثار الهكسوس الى بواكير الثورة المصرية ٠ وقـــدرنا أن يكون شررها قد أخذ يتطاير منـــذ أيام ملك من ملوك الهكسوس يقال له « أبو فيس » وقد كان ثالث ثلاثة يدعون بهـــذا

الاسم (١) . وتشير أخبار المصريين وأحاديثهم عن الثورة وأيامها الى أن « أبو فيس » هذا قد أخذ يتحدى الملك المصرى الحاكم يومئذ فى طيبة ويتحرش به (٢) . ولقد كان حاكمنا المصرى يدعى « سقنن رع » وكان هو الآخر ثالث ثلاثة من أهل بيته يدعون بهذا الاسم(٣) . وجدت أسماؤهم فى قرطاس من القراطيس البردية يعرف باسم بردية Abott (٤). والبردية من مخلفات محكمة طيبة العليا ، فيها محضر التحقيق فى قضية نهب القبور المشهورة فى وادى الملوك ، والتى وقعت حوادثها فى الأسرة العشرين ؛ وفيها كشف القضاء عن أسرار تلك الجريمة الكبرى بحيث قبض على أصحابها . وانتهى التحقيق باداناتهم وبالاهتداء الى ذلك المخبأ الشهير فى نواحى الدير البحرى ، حيث كان اللصـــوص يخفون جثث الملوك الذين نهبت قبورهم ؛ وفيها جثـــة ذلك البطل « سقنن رع » وبها آثار الجهاد بينة ظاهرة تتمثل فى ضربات أفضت الى موته (٥) .

وأخبار الثورة من أيام ذلك البطل معروفة فى الآداب المصرية من عهد الأسرة التاسعة عشرة (٦) . وهى تحدثنا عما كان من أمر «أبو فيس» ملك الهكسوس ، وكيف أنه أرهق الملك المصرى الحاكم فى طيبة بمطالب

---

(١) انظر :

Labib Pahor, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten & ihre Sturtz s. 23 ff.

(٢) توجد أخبار تلك الثورة فى البردية المعروفة ببردية Sallier وقد ترجمها العالم الألمانى Erman فى كتابه عن الأدب المصرى

Literatur der Aegypter, Leipzig 1923.

(٣) يدعى أولها « تاى » ويدعى الثانى « تاى الـكبير » ويدعى الثـالث « تاى قنى » (= تاى الشجاع) ويحمل ثلاثتهم اسم « سقنن رع » وهكذا وردت أسماؤهم فى قائمـة بدير المدينة . انظر تاريخ ادوارد ماير : Ed. Mayer, Chrenologie S. 78,

(٤) Peet, E. "The Great Tomb Robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty". Oxford. 1930. Winlock; Tombs of the Kings of the 17 Dyn.

(٥) انظر :

Smith, The Royal Mmmies, Le Caire 92.S. 4 Tafel 2&3.

(٦) بردية سانيه

Pap. Sallier I. vgl. Labib Pahor ibd. S. 36 ff.

لا قبل له باحتمالها ، وكيف أنه ظل يتحداه ويجرح كرامته حتى أثاره [1] • وأكبر الظن أن يكون « أبو فيس » قد رأى لأميرنا المصرى من القوة والسلطان ما يجوز أن يصبح أمره خطرا على ملك الهكسوس ونفوذهم السياسى • فأخبار الثورة فى البردية المذكورة تشير الى قوة الحكومة الوطنية ، واتساع نفوذها ، وانتشار سلطانها بين أقاليم مصر ، حين تزعم أن مصر كلها كانت تؤدى خراجها الى بيت طيبة • فلن يكون غريبا بعد ذلك أن يتحرش ملك الهكسوس بأميرنا المصرى من أجل الثراء المادى واتساع السلطان السياسى ، وأن يثور بيت طيبة ، ويثور معه أعوانه من بيوت الصعيد للعزة الوطنية والكرامة القومية • ثم لشىء آخر أجل خطرا ، وأبعد أثرا فى حياة الناس وفى تاريخهم السياسى من كل ما ذكرنا أعنى من أجل العيش وتنازع البقاء •

وبين أخبار الثورة ما يشير الى أنها قامت تحت راية الدين • ولن يبدو ذلك غريبا فى عيون أولئك الذين درسوا الحياة المصرية وتاريخها ، وحياة الشرق وتاريخه ، بل وحياة الدنيا كلها فيما مضى من أيامها البعيدة والقريبة • فقصص الحروب المصرية كلها قد صورت تلك الحروب فى صور دينية ، وأجرت حوادثها تحت راية الدين وفى ركاب الآلهة • وقصص الأسرائيليين عن حروبهم قد لبست كلها أثوابا دينية براقة •

فلاعجب بعد ذلك أن تثير الرواية عجاج هذه الحروب المصرية تحت راية الدين ، وأن تدفع بها فى ركاب « آمون » وهو يومئذ صاحب طيبة ومعبود الأسرة الحاكمة فيها • ثم تصور لنا « أبو فيس » ملك الهكسوس وقد جعل من معبوده « ست بعل » أله الآلهة ورب الأرباب يعكف على عبادته ويحرم على الناس عبادة ما عداه • ثم يدعو الملك المصرى الى عبادته والانصراف عن آمون ، بينما يحرص ذلك الأخير على

---

(١) Manetho : Unger, Chronologie des Manetho Berlin 1867

أن يكون «آمون» رب الأرباب واله الآلهة . وهكذا يتنافس الملكان تنافسا دينيا خالصا ، فما يكاد أحدهما يظفر بصاحبه ، وما كاد أحدهما يبلغ بمعبوده ما يريد . ثم ينتهى الأمر الى تلك الحرب التى أدت الى مصرع أمير طيبة .

ولست أريد أن أنكر أثر الدين فى اثارة الحروب . فقد يكون فى ذلك شىء من الحقيقة ، وقد تقوم الحروب من أجل الدين واعلاء كلمته أحيانا . على أن الغالب أن ألوية الدين لا ترفع فى الحروب الا لتذكى نارها وتؤجج وقودها . وانما تختفى أغراض المجاهدين وأطماعهم السياسية أبدا وراء ألوية الدين .

ونحن نذكر قصة « رمسيس الأكبر » فى موقعة قادش . عندما أحيط به ، وتفرق من حوله عسكره . فوقف وحيدا فريدا ينادى ربه وأباه « آمون » ، ويستغيث به ، ويستمد منه المعونة على الشدة ، والنصر على العدو . ولما استبطأ معونته أنكر منه ذلك ، وأخذ يناجيه بذلك العتاب الشديد اللين فى آن واحد .

ونحن نذكر عام الفيل ، وقصة الحرب بين اليمنيين والقرشيين ، وكيف أن حوادث الحرب قد جرت كلها تحت راية الدين . بينما اختفت من ورائها ألوية السياسة ، والطمع فى الثراء المادى والسلطان الواسع والجاه العريض . ونذكر ما كان من أمر القرشيين وهلعهم عندما أدركتهم جيوش اليمنيين تحت امرة أبرهة . ثم التجائهم الى عبد المطلب وهو يومئذ كاهن البيت وزعيم قريش . يدفعون به الى أبرهة ليرجوه أن يكف عدوانه عن البيت . ثم ينظرون فاذا عبد المطلب يسرع الى أبرهة فلا يكلمه فى أمر البيت ، وانما يسأله أن يرد عليه ابلا له كان قد سلبها أثناء زحفه على أرباض مكة . ويندهش أبرهة من أمر الرجل فيستصغر من شأنه . ويقول له « قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك . وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه» . فيجيب عبد المطلب «انى أنا رب الابل وان للبيت ربا سيمنعه » .

فالكفاح كما نرى لايكون من أجل الدين ، ولا من أجل الآلهة . وانما يكون الكفاح – مهما تلون – من أجل العيش والحرص على البقاء . فلم تكن حروب المسلمين فى عصر الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من أجل الدين ونشر دعوته واعلاء كلمته فحسب . وانما كان داعيها التوسع فى الفتح من أجل العيش الخفيض . والثراء المادى والطمع فى السيادة والسلطان العريض .

ولم تكن حروب الصليب كذلك من أجل صاحب الصليب والدفاع عن دينه . ولا من أجل محمد والحرص على عقيدته ، وانما هى حرب بين الشرق والغرب ونزاع على السيادة والسلطان . تذرع لها أصحاب المسيح من أهل الغرب بأسباب دينية يستطيع التاريخ أن يبرىء ذمته منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب كما يقولون .

وهكذا كانت الحرب بين المصريين والهكسوس . فلقد قام المصريون يدفعون الأذى عن نفوسهم ، ويطلبون الحرية لحياتهم ، ويسعون لتخليص وطنهم من الذل والرق ، ويستردون لأنفسهم حق الحياة الحرة فى هذا الوطن . واستعان بطلهم « سقنن رع » بأوليائه من بيوت الصعيد ومن ناحية أدفو بنوع خاص . وكانت له فى جهاده شريكة وسند قوى : هى زوجه الملكة «اياح حتب» التى وجد قبرها فى جبانة طيبة وهى أم خليفتيه وبطلى الجهاد من بعده « كاموسى » و « أحموسى » .

ونعود الآن الى البطل ومصرعه . فلقد بقيت جثته فى قبره بجبانة طيبة أجيالا طوالا . ثم نبش اللصوص قبره ونقلوا جثته الى ذلك المخبأ الذى أشرنا اليه فى الدير البحرى . ولما كان عام ١٨٧٥ . وقع عليها لصوص من سكان طيبة فى هذا العصر الحديث . ثم كشف أمرهم حوالى عام ١٨٨١ . حيث نقلت جثة بطلنا مع غيرها من جثث الفراعنة الى متحف القاهرة . ولما هيأت الدولة قبر «سعد» وأعدته لرفاته ، فكرت الحكومة القائمة وقتئذ فى نقل جثث الفراعنة واعادة دفنها الى جوار سعد . على

أن شيئا من ذلك لم يتم • لأن زعماء البلاد كانوا يختلفون فى ذلك الوقت • ولم يزل خلافهم قائما حتى يومنا هذا • ويقينى أن دفن جثث الفراعنة التى احتارت بين أيام الزمن فلا تكاد تستقر ، أهون على الأيام من اتفاق زعمائنا المصريين ألف مرة ومرة •

وكان العلم قد اتخذ سبيله الى أجداث الفراعنة منذ نقلها الى المتحف فقدرت أعمارهم ، وعرفت الأسباب التى أدت الى موتهم ، وفحصت جثة بطل الثورة فاذا سنه يوم مصرعه لا تكاد تعدو أربعين عاما • ومن المرجح أن مصرعه قد كان فى ميدان القتال وبين عراك الأسنة • وجائز أن يكون موته نتيجة لمؤامرة سياسية دبرها العدو ومن والاه من الخونة المصريين •

ومن آثار مقتله طعنات ثلاث فى فكه الأيسر • سقط بعدها فاقد الوعى ، حيث أهوى عليه القاتل بطعنتين آخريين ، أصابت أحداهما ما فوق الحاجب الأيسر ، بينما شقت الأخرى عظام رأسه ولما استيقن أعوانه من موته ، أسرعوا اليه فلفوه بلفائف من كتان ، ثم وضعوه فى صندوق من خشب مموه بالذهب وأودعوه قبره فى جبانة طيبة •

وظاهر من جثته أنه كان طويلا فى غير اسراف ، معتدل القامة ، ممشوق القد • ولم يكن له فى وجهة جمال ممتاز ، مستقيم الأنف عريض أصله ، بارز عظام الخدين ، صغير الفم مستديرة ، وفى لحيته وعوارضه أصول من الشعر تشير الى أن الأقدار قد زينته للقاء ربه فمن المرجح أن يكون قد حلق شعره فى صبيحة يوم مصرعه • ومهما يكن من شىء ، فالأمر الذى لاشك فيه مطلقا هو أن ذلك البطل قد لقى حتفه فى سبيل هذا الوطن • فاستحق من بعد ذلك تقدير الوطن ، واحتل من سجل التاريخ صفحة من ذهب لا يستحقها غير أمثاله من أبطال الوطنية فى هذه الدنيا • والواقع أن أيسر النظر فى حياة ذلك الرجل تظهرنا على أنه كان علما من أمجد أعلام زمانه ، علما وطنيا رائعا قل أن تعرف الدنيا

نظيره ، بناه الله أكرم بناء ، ثم صنع له أخـلاقه من نسيج طيب ، كله وجدان واقدام وايمان وفداء ؛ فلاينال منه عصف الريح وطالما اشتدعصفها فى أيامه ، ولم تنل منه حفيظة عدو ، وما كان أكثر أعدائه فى هذا الوادى ؛ ولا مقالة حاسد وقد كان حساده يقفون له بالمرصاد ، ويتربصون به الدوائر ، ويحاولون أن يثيروه ، ويخرجوه من عرينه ليفسدوا عليه حياته ويهدموا عليه بنيانه ٠ ولكن هيهات فان فيه سرا علويا يكفل له ولأمثاله العزة والكرامة فى هذه الدنيا ٠ هيهات وهو الذى وهب نفسه لحياة الجهاد والتضحية والايثار ٠ ثم كفل لاسمه الخلود فى ضمائر الأيام وقلوب الأجيال ٠ وكفانا منه أنه ورث الأجيال من بعده مثلا نبيلا ؛ وأثرا جليلا ؛ ثم علمهم كيف يهون الصعب فى سبيل الوطن ، وتبذل الحياة فى سبيل الخلود ٠ وقد كان يستطيع كغيره من الحكام المصريين الذين والوا الهكسوس أن يجيب داعى المستعمر ، فيخلد الى حياة الطمأنينة والدعة والعيش الخفيض ٠ ولو قد فعل لأغدق عليه الزمن من أسباب الرفاهية والرخاء المادى مالا يحصى ولا يوصف ، ولجنب نفسه وأسرته شرور الحروب وأهوالها ، وتجنب ذلك الصدام العنيف الذى أودى بحياته وهو فى ريعان الصبا وشرخ الشباب ٠ ولكن الرجـل خلق ليكون بطلا مجاهدا بل ليكون مثلا رفيعا فى جهاده ، فى مرحلة كانت البلاد فيها أحوج ما تكون الى التضحية ٠ والى تجديد المثل العليا بعد نومة طال أمدها فامتد خمسة أجيال كاملة ٠ وكانت مشيئة الله قد أرادت لهـذا الوطن المصرى ، بل للشرق العربى كله ، نشورا بعد طول خمول ، ونشاطا بعد طول انكماش ٠ ولم تكن صيحة الرجل فى قلب طيبة ولا ماشهده الزمن من احداث جسام تلعبها الأيام على مسرح هذا الشرق العربى ، غير نداء لداعى الشرق المستغيث تهدده خطوات ذلك الخطر الداهم تدفعـه الأيام فى ركاب الحيثيين فى زحفـه الماكر الخـادع على المطمئن الوادع ، وصـولة الباطل المسـلح على الحق الأعزل ؛ بل صـولة

القوى الجبار الواسع الحيلة والبطش على شعوب أضعفها اختلاف الزعماء وكثرة الشيع والأحزاب • كانت عواصف الخطر تهب على أقاليم الشرق من بعد قريب • وكان حكام الهكسوس يحاولون السيطرة على أقاليم الشرق ، فيرهقونها ولا يكادون يبلغون من أمرهم شيئا • واذا الله يسطر بيده الكريمة فى أفق هذا الشرق العربى بحروف من نور آيات من نصر جعل أولاها جميعا لذلك البطل المصرى • فيها العزة والنجاة للشرق • وفيها المجد الرائع لمصر الخالدة • واذا نظام يسود الشرق العربى كله من وراء ذلك تحت لواء مصر ، أشبه ما يكون بتلك الوحدة العربية التى نادت بها أقاليم الشرق وعقدت لواءها لمصر فى ذلك العصر الحديث •

وكتب الله لذلك البطل المصرى أن يضع فى بناء تلك النهضة حجر الأساس بحياته الغالية ، وأن يسجل على أعلامها أروع آيات البطولة والتضحية بدمه الزكى الكريم • وأصبح من الحق على أبناء الشرق جميعا أن يفخروا بسيرة ذلك البطل العظيم ، وأن ينظروا فيها كلما جدالجد وتحرج الأمر • وبعد فانى أشعر أنه من الحق على وأنا أسجل تاريخ مصر أن أوفى شخصية ذلك البطل حقها من الدرس ، ولكنى أعترف بأننى لم أرزق من قوة الوصف وبيان المنطق والقدرة على دراسة الناس وتحليل شخصياتهم ما يمكننى من ذلك • فأنا أرى فى نهاية الأمر أن شخصية الرجل أكرم وأرفع من أن يبلغها الوصف أو يجليها الدرس •

بطل الثورة الثانى

اذا مات منا سيد قام آخر ∴ قؤول لما قال الكرام فعول

وما أكاد أجرى قلمى لاستئناف الحديث عن الثورة، حتى يحضرنى ذلك الشعر العربى فأسجله فخورا بموقف أولئك الأبطال من أجدادنا • لأنه ينطبق تماما على حال المصريين يومئذ • وكأن الشاعر العربى لم ينطق بهذا الشعر

الا ليرسم به صورة من شعور المصريين واحساسهم فى ذلك الوقت البعيد من عهود مصر • فلقد حمل «كاموسى» لواء الثورة بعد سلفه ، وقصة ذلك معروفة على أثر من آثار المصريين يتمثل فى لوح من ألواح أبناء المدارس(١) • يعرف فى كتب التاريخ «بلوح كارنارفون»(٢) • تشير أخباره الى أن الملك كاموسى قد ضاق بنفوذ الهكسوس فى مصر ، وكان خطرهم يهدد ملكه من ناحية الشمال • وضاق أيضا بتقدم النوبيين ، وكان خطرهم يهدد ملكه من ناحية الجنوب ؛ وآية ذلك أن يشتد به الضيق حتى يقلق باله ويقض مضجعه • فيدعو رجال بلاطه وأمراء جنده ليشاورهم فى الأمر • وأقبل الملأ من أولئك وهؤلاء مهللين ومكبرين يملؤون ساحة العرش من حول مليكهم ، ويرددون الدعاء له والاشادة بمجده • ويتغنون بشجاعته ، ويفاخرون ببأسه وقوته ، ويمجدون سلطانه الواسع ، ونفوذه العريض • واذا هو يقطع عليهم صلاتهم ، وكانت كلها ملقا ونفاقا فيقول : « وددت لو أعرف ماذا تجدى على شجاعتى(٣) . فهذا أمير يجلس فى أواريس • وهذا آخر يجلس فى النوبة • وها أنا قد أحصرت بين اسيوى ونوبى ، وقد أخذ كلاهما يقاسمنى أرض مصر • وهؤلاء البدو

---

(١) يرجع هذا الأثر إلى مابعد أيام الهكسوس . وأكبر الظن أن سيرة البطل قد احتلت بين الآداب المصرية مكاناً رفيعاً، وأصبح لزاما على الأجيال أن تدرسها فى مدارس البلاد المختلفة. انظر :

Gardiner, A. & Gunn B. The Defeat of the Hyksos bei Kamose, The Carnarvon Tablet, No. I in journal of Egyptian Archeology III. (1916) p. 95; & V. (1918) 36. ff.

(٢) سمى اللوح بهذا الاسم لأنه آل إلى مجموعة يملكها اللورد كارنارفون . وكان من هواة الآثار المصرية . وهو الذى تولى الانفاق على تلك البعثة التى نقبت أعواماً طويلة فى جبانة طيبة واهتدت أخيراً إلى الكشف عن قبر توت عنخ آمون عام ١٩٢٣

(٣) كان الملك كامس شجاعاً ما فى ذلك شك . ولعل فى حديثه هذا وإقدامه على استئناف الجهاد ضد الهكسوس ما ينهض دليلا واضحاً لذلك . ولقد يظهر أنه كان يعرف ذلك لنفسه فهو قد سجل الإشارة إلى ذلك على بعض سلاحه فكان يضع أمام صوره سبعاً يشير إلى بطشه وشجاعته .

(الهكسوس) قد توغلوا فى البلاد وما كنت أقدر أن يصلوا الى منف ولكنهم أدركوا الأشمونين » •

وظاهر من رد القوم أنهم كانوا يكرهون الحرب ، ويؤثرون العافية • لأنهم زعموا للملك أن سلطان العدو وان امتد الى القوصية (ما بين أشمونين وأسيوط) لا يؤذى سلطانه ولا يعكر عليهم مافى حياتهم من صفو • فبلادهم ما زالت آمنة ورخاء العيش مازال يغمرهم • وأنعامهم ما زالت طليقة ترعى فى أرض الدلتا • والعلف ما زال يصل الى مواشيهم من محاصيل الشمال • فليبق العدو فى حل من شمال البلاد حيث يقيم • وللمصريين بعد ذلك ملك مصر [1]

على أن الملك قد ضاق بهذا القول ، وسخط من رأى أصحابه ، وكره منهم ذلك الضعف المنكر ، وأقسم ليخرجن الى العدو فيبقرن بطنه • لأنه يريد أن يحرر مصر ويضرب الهكسوس • ثم يؤيد عزمه هذا بذلك النداء الحار :

« ألا فليعلم أهل طيبة أن كاموسى سوف ينقذ مصر ، ويحفظها من مهاوى الهلاك • لسوف أخرج الى العدو بأمر آمون ، فهو وحده الهادى سبيل الرشاد » •

خرج كاموسى يحمل لواء الجهاد بعد أن جمع جيشه من خيرة أبنـــاء الصعيد ، وضم اليهم بعض عساكر الحدود من رجال النوبة ، وأخذ يمون جيشه على الطريق من البلاد الواقعة على شواطىء النيل • ثم أخذ طريقه نحو الشمال ، حتى اذا بلغ نفروسى [2] حاصر أميرها المدعو « تتى بن بى » وكان من أولياء الهكسوس • فما زال به حتى غلبه على أمره ثم خرب مدينته ونهب أرزاقها [3] • ثم غادرها نحو الشمال • وغالب الظن أن

---

(١) هكذا ورد خبرذلك فى لوح كارنارفون .Journal O.E.A. III & V

(٢) نفروسى : بلدة كانت تقع فى شمال أسيوط ولايمكن تحديد مكانها تماما .

(٣) هنا ينقطع الحديث لأن الأثر لم يستطع ادخار بقيته .

يكون قد بلغ فى زحفه حدود الأقاليم الوسطى من ناحية الشمال ثم خلصها جميعا من حكم الهكسوس •

ولما بلغ ذلك ، فكر فى أقاليم الجنوب ورأى خطر النوبيين يهددها • فسار الى أقاليم النوبة ، وأخضع الثائرين من أهلها • وسجل ذلك على صخور تشقا (ما بين الدر وأبو سنبل) (١)

وبعد فتلك سيرة البطل الثانى من أبطال الثورة المصرية كما سجلتها آثار المصريين • تكاد حوادثها تملأ الوادى فخرا منذ قومة البطل الى يومنا هذا • ولست أخفى على القارىء أننى لاأكاد أغادر تلك السيرة دون أن أتذوق لحوادثها بعض المرارة ، ودون أن أتصور ما نزل بنفس ذلك البطل الكريم من آلام محرقة ملأت قلبه فآذته وأضنته ، ولعلها عجلت بوفاته فودع الدنيا ولما يبلغ من آماله بعض ما أراد•فليس أبغض الى نفس الكريم من أن يجود بنفسه فيخذله الناس ، وليس آلم لنفس الحر من أن يقدمها ضحية وقربانا لوطنه ولا يسمع فى نفوس أنصاره لذلك صدى أو يحس له أثرا •

بمثل هذه الروح السامية يتوجع ملك مصر من حال البلاد وما أصابها من شرور الاستعمار وهوان المذلة • وبمثل هذه النفس الكبيرة الأبية يأبى ذلك الحاكم الشجاع أن يعيش وطنه تحت راية الاستعمار • وبمثل هذه الديموقراطية الصحيحةالمحبوبة يدعو ملك مصرمن دعا من أمراء جنده ورجال بلاطه ليسترشد برأيهم ويهتـدى بهديهم • وليتدبر معهم أمر البلاد وتخليصها من عار الضعف وهوان المذلة •

وبمثل تلك النفوس القانعة الضعيفة الذليلة يخذل الناس مليكهم فى أشد المواقف وأعظمها خطرا على حياة الأمة المصرية • بمثل هذا الضعف

---

(١) وجد اسمه على صخرة هناك فوق اسم أخيه وخليفته أحمس . على أننا لا نكاد نحقق اخوة الملكين تحقيقاً يبعد عن الشك .

المخجل يرضى رجال البلاط عن حياة الذل ، ويكتفون منها بذلك الرخاء المادى الذى جنى على نفوس المصريين فأذلها واستعبدها . ويا طالما أذلها واستعبدها فى مختلف عصور التاريخ . استعبدت أوروبا هذا الوطن المصرى بعد أن اشترى ساستها ومرابوها وزراء الدولة بالمال على عهد اسماعيل . وليس عصر الذهب المسموم من أيام كرومر ببعيد . وليس بين المصريين من لايذكر ذلك العهد البغيض الذى نكب فيه الاستعمار الأمة المصريةفقتلها أو كاد . وأصاب العقل المصرى فأضعفه وأذله ، وأصاب النفس المصرية فحطمها وجعلها ترضى بصغائر الأمور .

وبعد فانى أعتذر الى القارىء الكريم حين أنتقل به هذه النقلة البعيدة . فأنا لاأكاد أصور مأساة البلاد قبل ٣٧ قرنا دون أن أتمثل مأساتها الحديثة قبل ستين عاما . فما زالت ذكرى الاحتلال المرذول من أواخر القرن الماضى تطالعنا بمثل تلك الشخصيات القانعة الذليلة الحقيرة . وما أظن أحدا من أبناء هذا الجيل قد نسى أولئك الذين مهدوا السبيل للمحتلين، وأعانوهم بعدذلك على رفع راية الاحتلال،فاستحقوا بذلك تقدير الانجليز ، وأصبحوا لهم عمالا مأجورين وخداما غير مشكورين . وأغدقت عليهم الثروات الضخمة ، وفازوا بأعلى الرتب والمناصب . ونسى الشعب المصرى كل هذا ، لأن الدولة لاتتيح له التفكير فى مثل هذه الأمور ، بعد أن سلطت عليه جيوش الفقر والمرض والجهل ، فأحاطت به وضيقت عليه فما يكاد يفر منها الا الى الموت .

ونعود الآن الى بطلنا الثانى لنسمع حديثه عن الحرب اذ يقول : « واتخذت طريقى الى الشمال على متن النهر لأرد الاسيويين بأمر آمون واندفع من أمامى جيشى الشجاع اندفاع اللهب من سعير النار ودارت رحى الحرب حول نفروسى من مدائن مصر الوسطى ، وعليها حاكم من أولياء الهكسوس . فلم أترك له فرصة الافلات ولم أزل حتى رددت العدو وأمضيت ليلتى مغتبطا على احدى سفائنى . ولما كان اليوم الثانى حومت فوق عدوى كالصقر ، وما كاد وقت الصباح يتولى حتى كنت قد هدمت

أسواره وحصونه • وقتلت رجاله ، ثم سقت زوجه أسيرة الى الشاطى • وعاد عساكرى كالأسود ، فرحين بما غنموا من رجال وأنعام وأدهان وعسل وأخذوا بعد ذلك يقسمون بينهم الغنائم » •

والى هذا الحد ينقطع حديث الملك لأن الأثر لم يستطع ادخار ما بقى منه • على أنه لا يستبعد مطلقا أن يكون «كاموسى» قد استمر فى زحفه حتى طهر الأقاليم الوسطى من شمال أسيوط حتى منف • ونستطيع بعد ذلك أن نقدر أن الهكسوس قد ارتدوا الى الشمال واعتصموا بحاضرة ملكهم « أورايس » ومن حولها كانت خواتيم تلك الحروب على أرض هذا الوادى ، التى انتهت باخراج الهكسوس • الا أن كاموسى لم يشهد من ذلك شيئا ، لأن المنيـة قد عاجلته ولمـا يبلغ من تحقيق آماله كل ما أراد •

أحمس الأول ونصيبه من الجهاد

رأينا فى سيرة الملك كاموسى • كيف أنه كان عظيم الأمل فى النصر ، صادق العزم على مواصلة الجهاد ، قوى الايمان بذلك الظفر الذى يحقق أمله فى الحرية والاستقلال • على أن الله قد شاء — فيما يظهر — أن يقسم آيات النصر والبطولة بين أفراد البيت جميعا ، وأن يوزع الشرف بينهم توزيعا عادلا ، راعى فيه أمراء البيت رجالا ونساء • فكان من نصيب أولهم أن رفع راية الجهاد ثم سقط فى فجره بعـد أن رسم له الطريق السوى بدمه الغـالى • وكان من نصيب الثـانى أن يحمل الراية بعد سلفه ، ثم يمضى وجهه بعزمة البطل وايمان النبى • وظل يقاتل حتى رد الهكسوس الى وكرهم فى أطراف الشمال من أرض الوادى ، ولم يبق أمامه بعد ذلك الا أن يسوق العدو من وراء الحدود المصرية الى أرض الميعاد • ولكن جاء أجله فكتب الله ذلك لأخيه الصغير ، وخليفته من بعده : الملك أحمس الأول • فسطر فى سجل الجهاد خاتمة الكتاب ، وضرب

العدو ضربة تركته من بعدها صريعا يعانى آلام الاحتضار ليودع على أثرها دنيا الحكم والسياسة والحرب والنصر والهزيمة الى يوم القيامة . وسهمت أميرة هذا البيت الملكة «اياح حتب» فى كل ذلك . فهى قد جاهدت مع زوجها ، وجاهدت الى جانب خليفتيه من بعده كاموسى وأحموسى . وليس يكفى التاريخ أن يجعل منها أم بطلى الجهاد من بيت طيبة ، بل من الحق عليه أن يجعل منها أم المصريين جميعا . تسلم أحموسى زمام الحرب بعد وفاة سلفه . وحمل لواءها مندفعا نحو الشمال ، وأخبار القتال فى أيامه معروفة ؛ دونها أحد رجاله ويدعى أحموسى أيضا فى قبر له بجبانة الكاب . وكان أحموسى هذا أميرا لاحدى سفائن أسطول النقل الحربى فى ذلك العهد ، ورث ميله الى أعمال الحرب والقتال عن أبيه الذى كان جنديا أيام الملك «سقنن رع» . وورث منصب أبيه فى أمارة سفينة يقال لها «الفحل البرى» . حدثنا ذلك القائد أنه اشترك فى حروب المصريين ضد الهكسوس . وأن الملك قد أعجب به وأظهر من شجاعته وحسن تصويبه ، فرقاه الى أمارة سفينة تدعى « المشرق فى منف » ؛ حارب فيها على المياه المحيطة بأواريس والقريبة منها . فقتل وغنم مما حمل الملك على مكافأته بالذهب[1] أكثر من مرة . ثم يحدثنا عن سقوط « أواريس » وهى آخر ملاجىء الهكسوس فى هذا الوادى . والظاهر أن القتال لم يشتد بين المصريين والهكسوس . وانما اضطرت قوات الهكسوس الى مغادرة أواريس بعد تضييق الحصار عليها . فاتخذوا طريقهم فى الصحراء الشرقية ، باحثين عمن يمكن محالفتهم من أمراء آسيا . على أن الملك أحموسى قد تبعهم بجيشه حتى لحق بهم عند

---

(١) كان ملوك مصر يكافئون الابطال من أمراء عساكرهم بالذهب ، وكانوا يسمونه «ذهب البطولة» تارة على هيئة حلقات عريضة مستديرة . وأخرى على هيئة الذباب . وأكبر ظنى أن المصريين قد عاينوا ما فى الذباب من طبيعة الإلحاح ، فهو لا يطرد حتى يعود . والغالب أن يكون الناس فى تلك العهود قد كانوا يتمنون لعساكرهم أن يرزقوا طبيعة الإلحاح فلا يحملون على فرار حتى يعودوا إلى الكر .

حصن فى جنوب فلسطين يقال له « شاروهين » كانوا قد لجأوا اليه ، وتحصنوا به . فضيق عليهم الحصار ثلاثة أعوام كاملة حتى اضطروا الى الجلاء عن الحصن . وشتت الله شملهم فى أقاليم الشرق .

هذا وبين أخبـار « مانتون » التى نقلها الكاتب اليهودى يوسف مايحدثنا عن اخراج الهكسوس من مصر . واذا كان من الحق علينا أن ننظر فى أخبار ذلك الكاتب ، فمن حقنا أيضا أن ننظر فيها بعين الشك والريبة . فهو كأكثر كتاب زمانه لم يتحر الصدق والواقع . وكان فوق ذلك يهـوديا ، وقف يدافع عن اليهـود ، ويدفع عنهم ما رماهم به « أبيون » النحو السكندرى . فاتخذ من حطام « مانتـون » تكئة للدفاع عن جنسه . ثم حرف ما تقل لحاجة فى نفسه . وأكبر الظن أنه حاول أن يخلط بين الهكسوس واليهود ، ليجعـل من قومه أبطـالا فاتحين لاعراة لاجئين . وجعل انتصار المصريين على الهكسوس وجلاء هؤلاء عن مصر على أيدى التحامسة . وعد من رجال الجيش المصرى الذين ضربوا الحصار حول حاضرة الهكسوس مائتين وأربعين ألف (٢٤٠٠٠٠) محارب . وحاول أن يصور عجزهم عن اقتحام حصون الهكسوس . ثم أجرى بين المصريين والهكسوس مناورات ومشاورات انتهت بعقد معاهدة بين الفريقين ، يغادر الهكسوس بمقتضاها مصر دون أن يمسوا بسوء ، لينزلوا حيث يشاءون من أقاليم الشرق القريب.وهكذا غادر الهكسوس مصر الى سوريا عن طريق الصحراء بعتادهم وقواتهم التى لا تقل فى رأيه عن مائتين وأربعين ألف نسمة .

ومهما يكن من شىء ، فالأمر الذى لا شك فيـه مطلقا هـو أن الهكسوس قد غادروا مصر فى عهد « أحموسى الأول » الذى يعده التاريخ رأس الأسرة الثامنة عشرة من ناحية ، وواضع حجر الأساس فى بناء الامبراطورية المصرية من ناحية أخرى .

ولم يكد أحموسى ينتهى من أمر الهكسوس ، حتى دعاه داعى الحرب

الى جنوب الوادى •فكر راجعا الى أقاليم النوبة وكان أهلها قد استغلوا محنة المصريين أيام الهكسوس فانسلخوا من بناء الدولة المصرية وانشقوا على المصريين ، وخربوا حصونهم ومنازلهم فى أقاليم النوبة •

حدثنا أحموسى أمير البحر • أنه رافق الملك فى حملته على بلاد النوبة ثم عن ضرب المارقين من زعمائها ، وعن اشتركه فى القتال وحسن بلائه فيه ، مما جعل الملك يكافئه بالذهب والعبيد مرة أخرى •

ولما انتهى الملك من حروب النوبة عاد الى مصر عالى الرأس مرفوع الجبين وبيده لواء الحرية فرفعه على هام طيبة ، واتخذ عرشه فى قلبها ، وجعل منها عاصمة للدولة المصرية • وهكذا أشرقت عليها الشمس من جديد • وتطلعت طيبة الى الأفق البعيد ترقب حظها تحدوه الأيام فى ركاب المجد من بعد قريب •

صدى حكم الهكسوس فى سمع الزمن
وأثره فى توجيه سياسة الدنيا على ضفاف النيل
وفى أقاليم الشرق القريب

سقطت حكومة الهكسوس ، وغاب سلطانهم من عالم الوجود ، بعد أن خيم فى مصر قرنا ونصف قرن ، متخذا من شمال الدلتا الشرقى قاعدة لعرشهم • ولقد كان سلطانهم — أكبر الظن — واسعا عظيما • فهم قد جعلوا حاضرته من مصر فى شرق الدلتا ، مابين الصحراء والوادى ، ليكونوا من صحراء العرب — وهى طريقهم الى بقية أملاكهم فى الشرق الأدنى — على بعد يسير •

ولعل شأنهم فى ذلك أن يكون كشأن العرب عندما فتحوا مصر ، فأقاموا حاضرتهم على شاطىء النيل الأيسر [1] من تجاه منف • وفى المكان

(١) قد يبدو ذلك التعبير غريباً فى عين القارىء ، لأنى جعلت الفسطاط على شاطىء =

المعروف باسم الفسطاط • والواقع أن العرب لم يمدوا أنفسهم الى مصر ، الا بعد أن اتسع ملكهم فى الشرق • واتجهت أيامهم فى ركب التاريخ الذى أخذ يسير بالدولة العربية مسرعا فيحدوها الى عرش الامبراطورية الاسلامية •

ومن المرجح أن يكون الهكسوس قد سيطروا على كثير من أقطار الشرق القريب قبل أن يمتد سلطانهم فيغمر هذا الوادى المصرى ، وان ملكهم فى أول عهدهم بالحكم والسلطان قد كان واسع المدى عريض الآفاق ، ولن يبدو ذلك غريبا ولا عسيرا أيضا اذا ماذكرنا حال أقاليم الشرق واضطرابها بالفتن الداخلية والخارجية من جراء هجرة الشعوب الآرية التى وهنت عزيمة الشرق ، وتصورنا دفعة الهكسوس بخيولهم وأسلحتهم وسط أقاليم الشرق المضطربة •

وبين ألقاب حكام الهكسوس ما يشير الى اتساع ملكهم ، ولعل سلطانهم أن يكون قد بلغ مداه أيام مليكهم « خيان » • فلقد تعدت شهرته وادى النيل ، ووجدت آثاره فى سوريا وفلسطين وبابل وبعض جزائر بحر الروم • معنى ذلك أن نفوذ الهكسوس أو امتيازهم السياسى على الأقل، قد أظل الشرق وأظل معه جزائر البحر •فان اسم مليكهم خيان قد وجد على قطعة من رخام فى جدار أحد القصور من «كنوسوس» عاصمة جزيرة كريت •

كيف توثقت العلاقات بين مصر وكريت

ويستطيع المؤرخ بعد ذلك أن يدرك السر فى تلك الصلات التى اشتدت أواصرها وتوثقت عراها بين أهل كريت وبين أبطال الحرية

= النيل الأيسر . وأنا إنما قلت ذلك جرياً على عادة السلف من سكان هذا الوادى . فهم قد نظروا إلى منبع النيل وهو معين البر وخالق الحياة المصرية جميعاً . فوقم الغرب على يمينهم فأسموه « يمين » وغدا الشرق بعد ذلك شاطىء الوادى الأيسر .

من أمراء طيبة ، ابان ثورة الاستقلال التى أشعلوا نارها حول ملك الهكسوس • وليس عجيبا فى حوادث التاريخ بعد ذلك أن يقوم أهل جزائر البحر بامداد المصريين برجال الحرب وسلاحها عندما أخذوا يديرون رحاها على عرش الرعاة •

كذلك لن يصبح من نسج الخيال وصرفه ، مافكر فيه بعض المؤرخين من أن الملكة « أياح حتب » روح ثورة الاستقلال ، وزوجة بطلها الأول ، وأم بطليها الأخيرين ، بل أم المصريين جميعا ، قد تزوجت من ملك جزيرة كريت • فأصحاب هذا الرأى انما يعتمدون فى زعمهم على أن تلك الملكة قد كانت تدعى « ربة الجزائر » • وهى لن تكون فى نظرهم خليقة بهذا اللقب الا اذا كانت تحت من يقوم على حكم الجزائر • على أننى لا أكاد أرى فى حكم المروءة ولا فى حكم الانسانية ، والاعتراف بالجميل ، وتمجيد البطولة والاعجاب بالأبطال ، بل ولا فى حكم سياسة الزمن يومئذ ، ما يمنع من أن تحمل بطلة كهذه لقب «ربة الجزائر» دون أن تكون زوجا «لرب الجزائر» . بل اننى لا أستبعد مطلقا أن يكون أهل الجزائر أنفسهم هم الذين خلعوا على تلك البطلة ذلك اللقب مخلصين معجبين • ولا غرابة فى ذلك فهم ولاشك قد كرهوا حكم الهكسوس وضاقوا به كما ضاق به المصريون • وهم قد كانوا ولا شك تواقين الى الحرية ، نزاعين الى الاستقلال ، وكانوا والمصريين سواء فى نكبة الاستعمار وهو ان المذلة • ثم وجدوا فى المصريين أقوى معين على الخلاص من رق الاحتلال • فسهموا بالرجال والسلاح فى كسر شوكة الهكسوس والافلات من قيودهم الثقيلة ، ورأوا جهود بطلة المصريين موفقة فى هذه السبيل ، وعرفوا قدرها فى نفوس المصريين ، ومكانها فى المجتمع المصرى ، وتقديس الشعب لذاتها الكريمة ؛ فاذا غدا من حقها بعد ذلك أن تحمل كل صفات البطولة وألقاب الشريف والتعظيم ؛ فقد أصبح من دواعى التقدير والاعتراف بالفضل أن يخلعوا عليها ذلك اللقب دون أن تكون زوجا لأميرهم •

سكر المصريون بنشوة الظفر بعد عناء الجهاد ، وتذوقوا حلاوة الحرية بعد مرارة الذل • وفازوا بنعمة الاستقلال وجلاله بعد أن أمسكتهم قيود الاستعمار خمسة أجيال كاملة • فأخذوا يشيدون بمفاخر ذلك البطل الذى رزقهم نعمــة الحرية ، ورد عليهم جلال الاســتقلال ، وألقى عليهم وعلى وطنهم أردية من العزة والكرامة ، وباتوا يحفظون لبطل استقلالهم أصدق الشكر وأجمل الولاء ، ويدخرون له ولاهل بيته من أبطال الحرية أحسن الذكر • ومن المرجح أن يكونوا قد رددوا فى ذلك كله صدى ذلك التقدير عند أهل الجزائر أيضا •

ولعل حال مصر وماجاورها من الأقاليم أيام الهكسوس قد كانت أشبه شىء بحال مصر ومن جاورها من شــعوب البحر الأبيض أيام سلطان الرومان • ولعل نظرة جيران مصر الى أبطال الحرية من أمراء المصريين قد كانت أشبه شىء بنظرة المصريين ومن جاورهم الى العرب الذين خلصوا الناس من حكم الطاغوت الرومانى • وأشعروهم برحمة الانسانية وبرها •

ازدياد الصلة بين مصر وكريت وأثر كل منهما فى حياة الأخرى

وتزداد الصلة بين مصر وكريت ، وتتأثر كل منهما بالأخرى ، ويبدو ذلك الأثر واضحا قويا فى بعض نواحى الحضارة والفنون المختلفة ، وأمثلة ذلك ظاهرة فى بعض صناعة السلاح والحلى من أيام «أحموسى وكاموسى» وأمهما الملكة « أياح حتب » ابان الثورة على الهكسوس •

فهذا خنجر للملك أحموسى ، يحمل اسمه بحروف من ذهب ، ومن حول ذلك رسوم تمثل بعض طوائف الوحش فى طبيعة جبلية على نحو ما تمثل الوحوش فى فنون جزيرة كريت ، وعلى نحو ماوجد على بعض السلاح فى تلك البقاع •

والشيء الذى لاشك فيه هو أن خنجر الملك قد صنع فى مصر ، وصاغه صانع مصرى . ولكنه نحا فى صياغته نحوا لم يكن مألوفا فى مصر من قبل ذلك العهد . وفى ذلك من غير شك أثر من ارتباط سكان جزائر البحر بالمصريين ارتباطا أقل مايمكن أن يقال فيه أنه كان وثيقا . فسلاح الجزائر قد انتشر فى مصر إبان ثورة الاستقلال . وشواهد تأثر الفنون المصرية بفنون جزائر البحر لم تقتصر على ما قدمنا من مثل، وانما تعدته الى أمثلة أخرى . وكما تأثر الصانع المصرى بفنون جزائر البحر ، بدا أثر الفن المصرى واضحا كذلك فى فنون تلك البقاع .

فلقد وجد فى قبر أمير من أمراء الجزائر مقبض لخنجر ، صاغه صانع من أهل الجزائر ، ونحا فى صياغته نحوا مصريا واضحا . فمثل فى رسومه بعض نواحى الطبيعة فى وادى النيل ؛ مثل فيه أسماك النهر وما ينبت على شاطئيه من نبات البردى وأحراشه . وصور فى تلك الأحراش ما كان يأوى اليها من هرر برية وهى تطارد فيه بعض الطير .

فراعنة الوادى يستخدمون جنودا من جزائر البحر

وتأخذ الصلة بين البلدين فى الزيادة ، فما نكاد نبلغ أيام « أمنوفيس الثالث » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، حتى تحدثنا بعض الوثائق التاريخية من رسائل العمارنة عن استخدام جنود من الشردانين فى احتلال بعض الأقاليم السورية . وما تجىء أيام «رمسيس الثانى» من ملوك الأسرة التاسعة عشرة حتى يصبح استخدام أولئك الجنود فى الجيش المصرى أمرا عاديا .

وأكبر الظن أن يكون استخدام الجنود من جزائر البحر قد عرف منذ حرب الاستقلال وقومة الامبراطورية المصرية من أوائل أيام الدولة الحديثة . بل ليس يستبعد أن يكون بطل الاستقلال قد استخدم بعضهم فى حروبه ضد الهكسوس . فيكون مثله فى ذلك مثل «أبسماتيك» عندما

استعان بجنود من الأيونين ، أرسلهم اليه ملك ليديا أيام تحرير البلاد من نير الاشوريين • وكان أولئك الجنود من جزائر البحر • وكان سلاحهم الخنجر ، بينما كان سلاح المشاة من عساكر المصريين الرمح والفاس • وكانت دروع جند الجزائر مستديرة • وعلى رؤوسهم خوذات ذات قرون تشبه الأهلة • وكانوا مردا ذوى وجوه مستطيلة وتقاطيع حادة وقامات مديدة • وكان موطنهم جزائر بحر ايجه • وغالب الظن أن يكونوا من جزيرة سردينيا •

أثر الهكسوس فى نهضة مصر أيام الدولة الحديثة

من رأى المؤرخ الألمانى العظيم « ادوارد ماير » ، أن حكام الهكسوس قد هاجروا من سوريا الى وادى النيل ليتخذوا من شماله قاعدة لحكمهم حينما ضاقت عليهم الأرض فى أقاليم الشرق القريب بسبب هجرة الآريين التى وقعت فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح • ولعل رأيه فى ذلك أن يكون أصدق آراء المؤرخين جميعا • ولقد كان لهجرة تلك القبائل الآرية أثرها الخطير فى توجيه سياسة الأقاليم الاسيوية فى بلاد الشرق الأدنى من ناحية وفى تغيير وجه الدنيا على ضفاف النيل من ناحية أخرى • ولعل أخطر آثار تلك الهجرة أنها غيرت مجرى السياسة فى الشرق • وغيرت فوق ذلك مستقبل الحرب يومئذ فى هذه الدنيا • فهى قد ساقت الخيل فى ركاب المهاجرين الى بلاد الشرق • ومن المرجح أن يكون البابليون قد عرفوا استخدام الخيل فى القرن التاسع عشر قبل مولد المسيح أو بعد ذلك بوقت قصير • ثم شاع استخدامها على أثر ذلك فى الأقاليم السورية تقليدا للآريين والحيثيين • ثم بلغت الخيل مصر من وراء ذلك بعد أن شاع استخدامها بين قبائل البادية من الأعراب • ويكاد اسم الحصان على غرابة أصله واشتقاقه أن يكون واحدا فى أقاليم الشرق المختلفة • فلا يكاد يختلف الا بمقدار مايقوم بين لهجات القبائل والأقاليم المختلفة من فروق

يسيرة • فاسمه فى لغات بابل وآشور « سيسو » وفى لغة كنعان والعبرانيين « صوص » وفى لغة المصريين « سسمة » •

وظلت شعوب الشرق قرونا طويلة لاتعرف ركوب الخيل على نحو ما نركبها اليوم الا فى حالات نادرة جدا • وانما كانت تستخدم فى جر عجلات الحرب • وغالب الظن أن يكون الآريون هم أول من استخدم تلك العجلات ، وعنهم أخذ الاسيويون من شعوب الشرق القريب • ومن تلك الأقاليم دخل بها الهكسوس الى مصر عند ما أغاروا عليها حوالى عام ١٧٣٠ قبل مولد المسيح • فاذا الله يدخر من ذلك السلاح الذى طعنت به الأيام مصر على أيدى الرعاة ، أقوى معين على اخراجهم منها بعد قرن ونصف قرن • لا ليقيموا عرشهم فى اقليم آخر من هذه الدنيا • وانما ليزول سلطانهم تماما من عالم الوجود ، كما شاء الله أن يجعل من ذلك السلاح أقوى عامل فى بناء الامبراطورية المصرية التى امتد نورها الى أطراف الدنيا جميعا• أثر ذلك السلاح الجديد فى تقدم الحرب ؛ فكان الراكب يطوى به الأرض طيا سريعا ؛ حين الزحف وعند الهجوم • وينهى به الكفاح فى أقصر وقت ممكن • ومناظر الحرب على جدران المعابد المصرية ؛ تصور لنا هول الزحف والغارة ، وروعة الهجوم بعجلات الحرب تكاد جياد الخيل أن تطير بها من فوق الأرض ومن فوقها الفوارس من نبلاء الوادى وأمرائه يتقدمهم فرعون تكاد الأرض من تحته أن تزلزل زلزالها •

ولقد أثرت سرعة الحرب وسهولة الهجوم والزحف فى سياسة الدنيا وفى أحوالها الاقتصادية • وكان من جراء ظهور عجلات الحرب أن تخلف عسكر المشاة ، وأصبح للخيالة المقام الأول فى دنيا الحرب والغارة • وتقدمت صناعة السهام • وراجت أسواق الرماة • وكثر اقبال الأمراء والنبلاء ووجوه الأقاليم فى مصر وما جاورها من أقطار الدنيا على ممارسة الرياضة العسكرية ، والتمرن على قيادة الخيل وترويضها وفهم طبيعتها اقبالا عجيبا • وكانت الروح العسكرية فى مصر

قد انتعشت انتعاشا لم تسمع به الدنيا من قبل • ونهضت مصر نهضتها الحربية والسياسية فى آن واحد • وأصابها التوفيق فى بناء الامبراطورية المصرية على أساس التوسع فى الفتح والغارة وتأمين الحدود المصرية وضمان سلامتها ، ثم فى انشاء ذلك الحلف بينها وبين أقطار الشرق اتقاء لخطر الحيثيين • وانتشرت فى مصر صناعات الحرب المختلفة • وكانت منف عاصمة الديار الحربية طوال أيام الامبراطورية أقوى دعامة فى هيكل الامبراطورية جميعا • واندفع الناس من جميع الطبقات فى خدمة الجيش وفى مقدمتهم أمراء البلاد ونبلاؤها وأعيانها اندفاعا أزعج أصحاب الآداب والعلوم والفنون المختلفة • وأكثرت الحكومة من ترغيب الشعب فى الخدمة العسكرية بكثرة ما أعطت البارعين منهم من منح الأرض والذهب وألقاب التشريف والبطولة • وسمت روح المصريين المعنوية سموا عجيبا • وامتلأت نفوسهم بتلك الكبرياء المحبوبة التى تملأ عادة نفوس النبلاء من قواد الجيوش وأمرائها ، وبات المصريون يشعرون بأنهم سادة الدنيا وأمراؤها ، وأصبح لمصر أدب حربى رائع زاد فى ثروة البلاد الأدبية •

ثم أثرت الحرب فى عقيدة المصريين وثقافتهم الدينية ، فخلعوا على كثير من أرباب البلاد ألوانا عجيبة من صفات أبطال الحرب والغارة • وفى مقدمتها آمون سيد طيبة ورب أرباب الأقاليم المصرية جميعا • كما أصبح «منتو» رب طيبة اله للحرب عند المصريين ، وكانت الدنيا قد هيأته لذلك من قبل(١) • كذلك جعل المصريين من معبودهم القديم « ست » اله للحرب بعد ما كان من أمر مساواته بأله الساميين « بعل » • ودفعت النهضة الحربية الجديدة فراعنة مصر الى الاقبال على تمجيد آلهة الحرب الاسيوية فأقبلوا على رعايتها ونقلوا عبادتها الى مصر ، وأقاموا لها دور العبادة فى عواصم الوادى • وعرفت مصر من ذلك الوقت عشتارة وعناة ورشب •

أحمد بدوى

---

(١) أعنى منذ ان انتصر تحت رايته ملوك الأسرة الحادية عشرة ، فأعادوا على مصر حكومتها المتحدة .